

قليل من الشعر كثير من العشق

محمد نجم





رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

نجم محمد.

قليل من الشعر كثير من العشق.

تأليف : محمد نجم - ط ١ - القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٥.

٣٦٨ ص، ٢٥ سم.

تدمك ٢ - ٨٧٠ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - الشعر العربي - تاريخ - العصر الحديث.
(١) العنوان.

ديوى ٨١٩٩

١ / ٢٠١٤ / ٧٩

رقم الإيداع / ٤٥٢١ / ٢٠١٥

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

هؤلاء الشعراء

كنت قد تابعت بشغف هذه الصفحة فى مجلة أكتوبر التى يكتبها الصديق محمد نجم عن الشعراء العرب.. ولم أكن أتوقع أن يكون نجم عاشقا هكذا للشعر متذوقا له بهذا المستوى الرفيع الذى بدأ فى هذه الحلقات.

وسعدت سعادة غامرة أن ينضم إلى محبى الشعر صديق أفنى فكره وقلمه فى عالمى الاقتصاد والسياسة.. وله فىهما رؤية نافذة.. مما يدل على أن فن الشعر يمكنه أن يجذب إليه الكثيرين حتى لو كانوا خارج الدائرة بمسافات يظن أنها بعيدة ومستحيلة.

وحيثما انتهى الصديق محمد نجم من هذه الحلقات حدثته بضرورة جمعها فى كتاب يفيد القارئ المعاصر.. فاشتراط على أن أقدمه فى هذا الكتاب. ولم أتردد لحظة لأننى كنت سعيدا برشاقة قلمه وهو يسبح فى نهر الشعر الجارى فى العصور القديمة.

إن تراثنا الشعرى يستحق وقفات متنوعة سريعة وعميقة. وقد تحدى محمد نجم نفسه فى تقديم هذه المجموعة من الشعراء من هذا التراث الشعرى بأسلوب مختلف يجمع بين حسن الاختيار للمواقف التى عاشها الشاعر.. وبساطة العرض الذى يتلاءم مع قارئ العصر.. وأحسب أن ما فعله نجم سوف يحسب له فى عطائه العلمى.. والثقافى.

لقد قسم نجم الشعراء إلى طائفتين.. طائفة تضم أشهر الشعراء الكبار.. وطائفة أخرى تضم أشهر الشعراء العشاق والمتيمين.

وكان منهج نجم أن يعرف القارئ سريعا بالشاعر وإلى أى عصر ينتمى.. ثم يلتقط بعض المواقف التي عبر عنها الشاعر والتي ترسم ملامحه الشخصية والأدبية معا.. وهو بهذا يفتح باب الشوق إلى قراءة هؤلاء الشعراء الكبار بتوسع إذا شاء القارئ.

وقد يتعجب القارئ ويتساءل.. حين يرى الكاتب يذكر بعض الشعراء ويغفل بعضهم الآخر الذي قد لا يقلون تأثيرا في تاريخ الشعر العربي.. لكن الكاتب هنا يستجيب لميوله وذوقه في محبة الشعراء.. فلا لوم عليه إن أغفل شاعرا يحبه القارئ أو ذكر شاعرا لا يميل إليه القارئ.

الأمر إذا يتعلق بالكاتب نفسه.. ولعله - بذوقه الخاص - قد حاكى القدماء الذين سبقوه وهم يقدمون مختارات للشعراء.. ويزنون اختياراتهم تلك بميزانهم الخاص.

فعل ذلك قديما الأصفهاني في كتابه (الأغاني) - والأصمعي في (الأصمعيات) والمفضل الضبي في (المفصليات) - وأبو تمام في (الحماسة) والمرزباني في (معجم الشعراء) وغيرهم.. وسار على نهجهم من كتب عن الشعراء في العصور التالية حتى العصر الحديث وأشهر من فعل ذلك البارودي في مختاراته.

ولا يكاد يوجد كتاب قديم أو حديث أتى على الشعراء جميعهم.. لأن هذا ضرب من المستحيل.

لهذا فإن اختيار هذه الكوكبة من الشعراء يؤكد حب الكاتب للشعر والشعراء.. بل إنه نوع من اختياراته بينهم فمنهم من بدأ الشعر مثل امرئ القيس.. ومنهم من اشتهر بالهجاء والمقارعة مثل الفرزدق وجريير..

ومنهم من اشتهر بالفروسية والاعتداد بالنفس والفخر مثل عمرو بن
كثوم والمتنبى وأبى فراس الحمدانى.. ومنهم من اشتهر بالمجون مثل
أبى نواس - ومنهم من عرف بالزهد مثل أبى العتاهية.. ومنهم من
كان مداحا للملوك مثل النابغة والبحترى وأبى تمام.. ومنهم من اشتهر
بالتصوف كالحلاج.. ومنهم من عرف بالعشق كعنتره وعمرو بن أبى
ربيعه ومسلم بن الوليد وقيس بن الملوح وغيرهم.
الكاتب إذن يحاول فيما يقدم أن يشبع نهم القارئ مهما كانت
ميوله.. ومهما كان ذوقه.. ويقدم وجبة شهية سهلة الهضم يدخل بها
القارئ سعيدا إلى عالم الشعر.

أحمد سويلم

الجزء الأول

امرؤ القيس.. الملك الضليل!

قرأت كثيراً في كتب السيرة ودواوين الشعر، ولكن كنت دائماً أتوقف عند الفارس والشاعر العربي المبدع «امرؤ القيس»..

فأحداث حياته.. دراما إنسانية.. موحية ومؤثرة، حيث قست عليه الأيام وعاندته الظروف.. فتقلب بين النصر والهزيمة، والسعادة والشقاء.. والغنى والفقر.. ومات وحيداً ودفن بعيداً.. عن أهله ودياره. إنه امرؤ القيس بن حجر بن الحارث.. لقب بالملك الضليل.. لكثرة ترحاله وتنقله بين القبائل العربية مع نفر قليل من أهله وأعوانه.. وسمى أيضاً «ذا القروح» بسبب إصابته بمرض الجدري، والذي كان سبباً في وفاته.

كان والده حجر بن الحارث ملكاً على بني أسد.. إحدى القبائل العربية الشهيرة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وكان شاعرنا أصغر أولاده. فشب على ما كان ينشأ عليه أولاد الملوك العرب في ذلك الزمان، حيث تعلم الفروسية والشعر، لكنه كان محباً للهو واللعب.. مولعاً بمغازلة النساء.. ومن كثرة مغازلته لفتيات القبيلة.. غضب عليه والده، ونهاه عن ذلك فلم يردع، فاضطر لطرده، فجمع امرؤ القيس حوله مجموعة من الفتيان والصعاليك.. وهام بهم.. متنقلاً بين منازل العرب.. يلاعبهم وينازلهم.. وينشدهم الشعر.

وبينما هو في هذه «الحالة» غير عابئ إلا بما هو فيه، من المرح والمتعة، جاءه نعي أبيه.. وأن بنى أسد قتلته، فرفع رأسه إلى الرسول-

وكان يلعب النرد مع صديق له - قائلاً: ضيعنى صغيراً، وحملنى دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر.. وآلى على نفسه، ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً.. ولا يقرب الماء من رأسه.. حتى يأخذ بثأر أبيه ممن قتلوه وظل يطاردهم.. مرة يخطئهم، وأخرى يصيبهم، مستعيناً فى ذلك بأعمامه وكانوا ملوكاً على عدة قبائل عربية مختلفة.. حتى ظفر بهم.. وفى هذا يقول:

أحمى دروعهم فسربلهم بها والنار كحلهم بها تكحيلها
حلت له من بعد تحريم لها أو أن يمس الرأس منه غسولاً
حتى أباح ديارهم فأبادهم فعموا فهم لا يهتدون سبيلاً
أى إنه بعد أن ظفر بهم.. أحمى الدروع وألبسهم بها، وكحل أعينهم بالنار، وأباد ديارهم.. ومن نجا منهم.. هام على وجهه بين القبائل.
وأصبح من حقه أن يشرب الخمر ويغتسل بالماء، بعد أن كان قد حرهما على نفسه.. حتى يأخذ بثأر أبيه.

تلك كانت نبذة سريعة عن حياة امرؤ القيس الفارس، الذى تحمل عبء أخذ ثأر أبيه دون أشقائه الآخرين.. وكانوا كثر ولكنهم تخاذلوا عن مساندته.

أما امرؤ القيس الشاعر.. فالحديث يطول حوله.. فقد كان مبتكراً ومجدداً.. ويكفيه أن وصفه رسول الله (ﷺ) بحامل لواء الشعراء.
واقراً معى ما قاله فى فترة الصبا واللهم.. فى قصيدة «تعلق قلبى» من رقة الغزل وجمال الوصف:

تعلق قلبى طفلة عربية تنعم فى الديباج والحلى والحلل
لها مقلة لو أنها نظرت بها إلى راهب قد صام لله وابتهل
لأصبح مفتوناً.. معنى بحبها كأن لم يصم لله يوماً ولم يصل
فتلك التى هام الفؤاد بحبها مهفهفة بيضاء درية القبل

أو عندما شبه نفسه بالفأر الذى حاولت القطة صيده، ولكنه أفلت منها، ومع ذلك فهو حزين.. لأنه لم يأخذ بثأره.. حيث رمته بسهم عينيها.. فأصابت فؤاده!

وهر تصيب قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمر حجر
رمتنى بسهم أصاب الفؤاد غداة الرحيل.. فلم أنتصر

واقراً له فى معلقته الشهيرة التى تبدأ بـ «قفا نيك من ذكرى حبيب منزل».. معتزاً بكرامته.. قوياً صلماً.. على الرغم من أن دموع حبيبته كانت كالسهم الذى ضرب أجزاء قلبه المفعم بحبها!

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وأنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف فى حديد مكبل
فما ذرفت عينك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وعندما ضاقت به الأرض رغم براحها وتكالبت عليه الهموم، وصف ظلمة الليل الذى تمدد بجسده والتحق أوله بآخره، بأموج البحر المتلاطمة حاملة معها كافة أنواع الهموم.. وكأنها تختبر صلابته وقوة تحملها، ومع أن الصبح ليس أفضل من الليل الطويل فهو يناشده أن

يرحل ويكفيه ما هو فيه !

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الأصباح منك بأمثل

رحم الله امرؤ القيس.. مات وحيداً ودفن غريباً.. بعد أن عاش شريداً
معدباً بثأر أبيه.. ولم يكن يأمل من صروف الدهر خيراً.. وهو يعلم أن
الزمن يذيب الصخور الصماء!

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك ابن عمرو وبعد الخير حجر ذو القباب
أرجى من صروف الدهر ليينا ولم تغفل عن الصم الهضاب!.

□□□

١ - النابغة.. الشاعر [١ - ٣]

هو ابن زياد بن معاوية بن ضباب من قبيلة ذبيان، يعده النقاد أحد أمراء الشعر وزعماء القول.. فقد كان من أحسن الشعراء ديباجة وأكثرهم رونقاً في الكلام وأجزلهم في أبيات الشعر، وكنى بالنابغة لسببين: الأول وهو الأرجح.. لأنه لم ينطق بالشعر إلا بعد ما بلغ من العمر أزدله وشاب الشعر منه، فقد نبع الشعر منه فجأة بعد مشيبه، كما أن شعره تميز بالجودة والفصاحة والقوة في اللفظ وحسن التعبير.. لدرجة أن شعراء عصره وعلى رأسهم الخنساء والأعشى وحسان بن ثابت وغيرهم اختاروه «محكما» ومرجعاً لهم، حيث كانت تنصب له «قبة» من الجلد في سوق عكاظ.. ويأتيه الشعراء ليعرضوا شعرهم عليه.. فيقيمه ويجيزه.. ويعطى لكل شاعر رتبته بين أنداده.

أما السبب الثاني: فقد قيل إنه سُمى بالنابغة لأنه قال هذا البيت في إحدى العشائر:

وحلت في بني القين ابن جسر فقد نبغت لنا منهم شئون

المهم أنه نبغ على قومه ومعاصريه بالشعر في نهاية عمره.. فتسيد قومه، واحتكم إليه شعراء عصره.

وكعادة الشعراء في ذلك العصر (الجاهلي) مدح النابغة ملوك الحيرة في العراق (المناذرة) وملوك الغساسنة في الشام وغيرهم من الأمراء والشيوخ.

ولكن المحطة الأساسية في حياته الشعرية.. أنه كان صديقا ونديفا
للنعمان بن المنذر ملك الحيرة الملقب بـ (أبو قابوس) وقال فيه شعرا
كثيرا.. كان النعمان يستحسنه دون سواه ويجزل له العطاء بسببه..
ومنه :

متوج بالعالي فوق مفرقه
وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر
أخلاق مجد تجلت مالها مثل
فى البأس والجود بين الحلم والخفر

ولكنه تغزل بزوجة النعمان «المتجرده» وكانت شديدة الجمال،
وكانت على علاقة بشاعر آخر هو المنخل اليشكرى، وقال فيها النابغة
عندما أسقطت زرار جلبابها:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجود العود
وكانت هذه القصيدة سببا فى أن وشى به (غيرة وحسدا) شعراء الملك
الآخرون ومنهم عبد القيس التميمي ومرة السعدى.. واستشهدوا ببعض
أبيات أخرى قالها فى المتجرده.. ومنها قوله :

زعم الهمام بأن فاهها بارد عذب مقبله شهى الورد
زعم الهمام - ولم أذقه - بأنه عذب متى ما ذقته قلت: أزد
هذا إلى جانب أبيات أخرى.. مثل قوله :

وإذا طعننت طعننت فى مستهدف رامى المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف نزع الحزور بالرشاء المحصد
وإذا يعض تشده أعضاؤه عض الكبير من الرجال الأرد
وقالوا للملك.. لا يصف هذا الوصف الباطن إلا من جرب! فغضب
النعمان على النابغة وهم بقتله ولكنه تمكن من الهرب وذهب إلى ملوك
الغساسنة فى الشام واحتفى بهم وقال فيهم شعرا كثيرا.. منه :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجيشان أول غالب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
توارثن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وهو يشير فى مدحه للغساسنة إلى انتصارهم على المناذرة، حيث
قتل الحارث بن شمر ملك عرب الشام (الغساسنة) المنذر بن المنذر ملك
عرب العراق (المناذرة) ونسبت المعركة إلى (حليلة) بنت الحارث بن
أبى شمر، لأنها كانت تحرض عسكر أبيها على القتال، ويزعم بعض
المؤرخين أنه بسبب شدة القتال.. ارتفع الغبار فى ذلك اليوم، وتكاتف
حتى سد عين الشمس.. وظهرت الكواكب!

وقد زعم المؤرخون أن الخليفة أبا بكر الصديق كان يقدم النابغة على
غيره من الشعراء، وكان يقول إنه أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا، كما
أن الخليفة عمر بن الخطاب أيضا كان يصفه بأشعر الناس.. وكان دائما
يردد ما قاله النابغة ومنه.. قوله :

إلى ابن محرق أعملت نفسى وراحتلى وقد هدت العيون
أتيتك عاريا خلقا ثيابى على خوف تظن بى الظنون
فوفيت الأمانة لم تخنها ومن يك فى نصابك لا يخون

ولكن طوال ملازمة النابغة للموك الغساسنة.. ناله ما ينال مصاحب
السلطان، فلم يصف له العيش بينهم بعد موت ممدوحه الحارث بن
عمرو الغساني، فقد تنكر له خلفه بسبب سوء العلاقة بينه وبين قوم
النابغة (ذبيان) وحلفائهم بنى أسد، وهو ما دفعه لأن يعود إلى بلاده
وقومه فى الحجاز، ويستعيد ذكرياته مع ملوك المناذرة وأعطياتهم
السخية، وما كان له عندهم من منزلة وتكريم، فعاوده الحنين للعودة
إليهم فأنشد القصائد فى مدحهم.. والاعتذار لهم، والتنصل مما أشاعه
عنه خصومه وحساده، ولجأ لأصدقائه من زعماء قبائل فزارة ليتشفعوا
له عند الملك النعمان.. وكان يعلم أن الملك لا يرد لهم شفاعته.. فصيح
عنه.. ومنحه ما تعود من أعطيات..

ومن ثم كانت قصائده الشهيرة بالاعتذاريات.. ومنها القصيدة التى
مطلعها:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت و طال عليها سالف الأمد



٢- النابغة.. السياسى! [٢ - ٣]

الحق أن النابغة لم يكن شاعرا مداحا للملوك وللأمراء لينال عطاياهم.. فقد كان من سادة قومه.. ولعب دورا سياسيا فى حرب داحس والغبراء الشهيرة فى الجاهلية.. كما كان ملوك المناذرة والغساسنة وغيرهم من الأمراء وزعماء القبائل يقدرونه.. ويقبلون وساطته فى الإفراج عن الأسرى بين القبائل المتحاربة، ولكن كانت هذه عادة الشعراء فى الجاهلية أن يقصدوا الملوك ليصادقوهم وينادموهم لينالهم من نعمهم نصيب.. ويتقوا شرهم ضد قومهم، فقد كان المناذرة والغساسنة فى حروب دائمة.. وكان الكثير من القبائل يحتمى بأحدهما ضد منافسيه.. بل الطريف أن المناذرة كانوا يحتمون بالفرس والغساسنة بالروم!

ومن ثم كان للشعراء دور كبير فى هذا المعترك السياسى لحماية قبيلتهم أو الحصول على «أرض» إضافية كمرعى لإبل القبيلة.. وهو ما كانت تقوم الحروب بسببه..

فقد ذهب النابغة الذبياني إلى الملك الغساني الحارث بن أبى شمر ليكلمه فى أسرى بنى أسد وكانوا حلفاء غطفان وذبيان (قوم النابغة)، فأعطاه إياهم وأكرمه، ولكنه حذره من حصن زعيم الفزارين أصدقائه.. فقد بلغه أنه يجمع عليه القبائل:

وها هو النابغة يصف ذلك فى شعره:

إنى كانى لدى النعمان خبّره بعض الأود حديثا غير مكذوب
بأن حصنا وحيما من بنى أسد قاموا فقالوا: حمانا غير مقروب
ضلت حلومهم عنهم وغرهم سن المعيدى فى رعى وتعذيب
ثم يصف أسرى بنى أسد الذين تمكن من فك أسرهم:

لم يبق غير طريد غير منفلت وموثق فى حبال القد مسلوب
أو حرة كمهاة الرمل قد كبلت فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعو قعيننا وقد عض الحديد بها عض الثقاف على صم الأنابيب

فقد كانت نساء بنى أسد.. وهن كالمهاة فى حُسن عينيها مقيدة
بحديد يوجعهن، وهن ينادين على قومهن: يالقعين.. طليا للنجدة!
ومرة أخرى يتدخل النابغة لدى الغساسنة من أجل قومه، فقد كان
للغساسنة واد اسمه «أقر» مملوء عشباً ومياها، فجارت عليه بنو ذبيان،
فنهاهم النابغة وحذرهم وخوفهم من إغارة الملك عليهم، فعيروه بخوفه..
وهو ما حدث فعلا:
وفى ذلك يقول النابغة:

لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربعهم فى كل أصفار
وقلت: يا قوم إن الليث منقبض على برائنه لوثبة الضارى
وعيرتنى بنو ذبيان خشيته وهل على بأن أخشاك من عار

وحين أغار النعمان بن وائل الكلبى على بنى ذبيان وهزمهم أخذ
منهم النساء سبايا، ومنهن عقرباً ابنة النابغة.. فسألها: من أنت؟

فقالت: أنا بنت النابغة، فقال لها: والله ما أحد أكرم علينا من أبيك، ولا أنفع لنا عند الملوك، ثم جهزها وخلهاها، ثم قال: والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا، فأطلق الأسرى كلهم.
وفى هذا يقول النابغة:

لعمري لنعم الحى صبح سر بنا وأبياتنا يوما بذات المراد
يقودهم النعمان منه بمحصف وكيد يعم الخارجى مناجد
أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده وجللها نعمى على غير واحد

وللنابغة قصيدة جميلة يعدها النقاد إحدى معلقات الشعر العربى..
قالها فى مدح عمرو ابن الحارث الغسانى بعدما هرب من عرب العراق (المناذرة) إلى عرب الشام.. وقد بدأها على نظم امرئ القيس عندما خاطب الليل الذى لا ينجلى عن صبح ليس بأفضل منه، وهنا يخاطب النابغة أميم ابنته أن تتركه لهما يقاسى الليل الذى لا تتحرك كواكبه:

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت: ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بأيب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وكما كان النابغة علامة فى المدح والاعتذار.. كان ذلك أيضا فى الرثاء.. فها هو يرثى صديقه حصن زعيم الفزارين بقوله:

يقولون حصن، ثم تأتى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الأرض القبور ولم تنزل نجوم السماء والأديم صحيح

فعمًا قليل ثم جاش نعيه فبات ندى القوم وهو ينوح
كما قال أيضا يرثى أخاه وأمهما عاتكة بنت الأشجعي، وكان قد
ذهب يستعيد إبلا له.. فمات:

لا يهنئ الناس ما يرعون من كلاً
وما يسوقون من أهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوي لدى أبوي
أمسى ببلدة لا عم ولا خال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بال

ولم يخل شعر النابغة أيضا من «الحكمة» وإن لم تكن فى شهرة
حكمة المتنبي.. لكن لا يمكن تجاهلها:

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس نوى مجد ومكرمة إلا يشد عليهم شدة الذيب
حتى يبيت على عمد سراتهم بالنافذات من النبل النصاصيب
إنى وجدت سهام الموت معرضة.. بكل حتف من الآجال مكتوب



٣- اعتذاريات النابغة [٣ - ٣]

لم يطب العيش للنابغة لدى الغسانيين بالشام بعد وفاة صديقه الملك الحارث.. فقد تبدلت الأحوال بالنسبة له.. فلكل دولة رجال.. وهو الشيخ المجرب.. فحمل متاعه وعاد إلى قومه «بنى ذبيان» في الحجاز، وعاوده الحنين إلى صديقه القديم الملك النعمان بن المنذر الذي غضب عليه بعد أن وشى به البعض عنده، فوسط أصدقاءه من الفزارين ليكلموا النعمان بشأنه، كما أخذ يعلن عن العديد من قصائده في مدح النعمان وملوك المناذرة.. وهى التى سميت «بالاعتذاريات» لكثرتها وشهرتها.

وقد بدأت المصالحة عندما استأذن الفزاريون الملك النعمان لزيارته فأقام لهم خيمة كبيرة ليقيموا فيها ومعهم مغنية للترفيه عنهم ولم يكن يعلم أن النابغة معهم، وطلب الأخير من الجارية أن تتغنى ببعض أشعاره التى يقول فيها:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زار من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد
فلا لعمر الذى مسحت كعبته وما أريق على الأنصاب من جسد

فالشاعر يقسم بالكعبة التى حج إليها وبالدماء التى سألت على أجساد الأصنام، كما يدعو بشلل يده وعدم استطاعتها رفع سوطه إذا كان ما وصله عنه صحيح.

المهم.. أنه عندما سمع النعمان ما تقوله الجارية أقسم أنه شعر
النابغة، فسأل عنه وأخبروه بأنه مع الفزارين.. فعفا عنه.. وقربه منه..
فعادت سيرتهما الأولى.

وكان النابغة كعادة شعراء الجاهلية يبدأ قصائده سواء كانت للمدح أو
الاعتذار أو الفخر بالبكاء على الأطلال، ثم يدخل إلى الموضوع الأساسي..
وهو هنا في أول اعتذارياته للنعمان في قصيدته الشهيرة «يا دار مية
بالعلياء فالسند» يبكي على الأطلال التي كانت عزيزة بسبب ارتفاع
مبانيها التي أقيمت على مكان عال.. فضلاً عن استنادها على الجبل
المجاور لها.. ووقف بها قليلاً.. يسألها، ولم يجد أحداً بالمكان يرد
عليه.

وبعدها يبدأ بالتعبير الذي اشتهر عنه والذي كرره في أكثر من
قصيدة «أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى».
حيث يقول في تلك القصيدة:

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت، و طال عليها نالف الأمد

وقفت فيها أصيلانا أسائلها

عيّت جوابا، وما بالربع من أحد

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وبعد العديد من الأبيات التي يصف بها حال المكان، وناقته،

وعمليات الصيد بالكلاب.. إلخ.. يخاطب النعمان بقوله :

فتلك تبلغنى النعمان، إن له
فضلاً على الناس فى الأدنى وفى البعد
ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه
ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له
قم فى البرية فاحدها عن الفند

ويواصل المدح.. مذكرا إياه بما أعطاه له وهو كثير.. من نوق وخيول..
ثم يصل إلى الاعتذار الصريح :

هذا الثناء فإن تسمع به حسنا
فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصفد
ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت
فإن صاحبها مشارك النكد

ثم يعاود الكرة فى قصيدة أخرى.. فيشرح موقفه ويطلب العفو..
مذكرا إياه بعدالة الله فى الأرض!

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى
وتلك التى تستك منها المسامعُ
مقالة أن قد قلت سوف أناله
وذلك من تلقاء مثلك رائع

أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِي بِغِيْضَةٍ
لَهُ مِنْ عَدُوِّ مِثْلِ ذَلِكَ شَافِعِ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ
وَلَوْ كُئِبْتُ فِي سَاعِدَى الْجَوَامِعِ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً
وَهَلْ يَأْتِمُنْ نُوْ إِمَّةٌ وَهُوَ طَائِعِ
فَإِنْ كُنْتُ لَا نُو الضَّغْنِ عَنِّي مَكْذِبٌ
وَلَا حَلْفِي عَلَى الْبِرَاءَةِ نَافِعِ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ
وَأَنْتِ بِأَمْرٍ لَا مُحَالَةَ وَاقِعِ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مَدْرَكِي
وَإِنْ خَلَّتْ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنكَ وَاسِعِ
أَتَوْا عِدَّ عِبْدًا لَمْ يَخْنُكَ أَمَانَةٌ
وَتَتْرَكَ عِبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ضَالِعِ
وَأَنْتِ رَبِيعٌ يَنْعَشُ النَّاسَ سَيْبِهِ
وَسَيْفٌ أَعْيَرْتَهُ الْمَنِيَّةَ قَاطِعِ
أَبَى اللَّهُ إِلَّا عَدْلُهُ وَوَفَاءُهُ
فَلَا النُّكْرَ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعَرَفَ ضَائِعِ

إننى لم أجرؤ على اختصار الأبيات.. لحسن بيانها وقوة ألفاظها
وجمال معانيها ونعومة موسيقاها.. فبعد التوضيح والاعتذار.. يصفه

بالليل الذى يدرك الجميع (هيروح منه فين) وهو الربيع وهو السيف..
وكيف له أن يتوعد عبداً لم يخنه ويترك الظالم.. أين عدل الله على
الأرض.. فلماذا ننكر المعروف ونضيع العرف؟

وهذه قصيدة أخرى.. وصفت بأنها أجمل ما قيل فى الاعتذاريات:

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصبُ
فبت كأن العائدات فرشنى هراسا به يُعلى فراشى ويقشِب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
فإن آك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب

أنت كالشمس والملوك كواكب.. فكيف تظلمنى وأنا العبد، وإن يكن
ذلك عتاب.. فمن غيرك يعاتبنى!

ونختم بما يشبه الرثاء عندما علم بمرضه وشبه وفاته:

أحاديث نفسى تشتكى ما يريبها

وورد هموم لن يجدن مصادرا

تكلفنى أن يغفل الدهرُ همها

وهل وجدت قبلى على الدهر قادرا؟

ألم تر خير الناس أصبح نعشه

على فتية قد جاوز الحى سائرا

ونحن لديه نسأل الله خلده

يرد لنا ملكا ولأرض عامرا

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا

وأصبح جد الناس يظلع عاثرا

□□□

ليبيد بن ربيعة.. الفروسية والكرم

هو ليبيد بن ربيعة العامري من هوازن قيس، كنى بـ «أبي عقيل» لامتلاكه ناصية الشعر.. فهو أحد أصحاب المعلقات الشعرية في العصر الجاهلي.. وكان صاحب نفس ذكية ويعتقد بوجود إله واحد أحد.. وقد رأس وفد قومه بنى عامر عندما قدموا على رسول الله.. وأسلموا جميعاً، ويقول الرواة إنه عاش أكثر من ١٣٠ عاماً، وأنه هجر الشعر بعد إسلامه وحفظ سورتي البقرة وآل عمران كاملتين.

ولكن أطرف ما يروى عن ليبيد وهو صغير أنه لاحظ غضب قومه بنى عامر من الربيع بن زياد من قبيلة عبس.. وكان مقرباً من ملك الحيرة النعمان بن المنذر.. وكان يسىء لهم عند الملك مما يدفعه للتأخر فى تلبية مطالبهم، فسألهم ليبيد: ما الخبر؟ ولكنهم تجاهلوه لصغر سنه.. فأنذرهم بالأمر على لهم غنما ولا يروى لهم إبلا ولا يسرج رحالهم إن لم يخبروه، فقال له عمه: خالك الربيع يسىء إلينا عند الملك، فطلب منهم أن يجمعوه مع الربيع ليزجره عنهم بقول مؤلم لا يلتفت إليه الملك بعده أبداً.

فأدهشهم قوله وعزمه وأرادوا أن يمتحنوه، فطلبوا منه شتم عشبة طفيلية وصفت بثبات جذورها فى التربة، فاندفع يقول: هذه التربة لا تؤهل داراً، ولا تزكى ناراً، ولا تستر جاراً.. عودها ضئيل، وفرعها كليل، وخيرها قليل.. نبتها خاشع، وأكلها جائع، والمقيم عليها

ضائع.. أخبث البقول مرعى، وأقصرها فرعا، فتعسا لها وجدعا.. ألقوا
 بى أخوا عبس.. أرده عنكم بتعس، وأتركه عن أمره فى لبس، فحلقوا
 رأسه وألبسوه ملابس الفرسان واصطحبوه معهم إلى النعمان واستأذنوا
 فى الدخول عليه.. وكان الربيع معه وهما يأكلان فتقدم لبيد.. واقترب
 من الملك.. وأخذ يهجو الربيع مخاطبا النعمان:

يا رب هيجا هى خير من دعه أكل يوم هامتى مفزعة
 نحن بنو أم البنين الأربعة ومن خيار عامر بن صعصعه
 يا واهب الخير الكثير من سعه إليك جاوزنا بلاداً مسبعه
 يخبر عن هذا بخير فاسمعه ولا أبيت اللعن لا تأكل معه
 إن أسته من برص ملمعه وإنه يدخل فيها إصبعه!

وبعدما انتهى لبيد من إنشاد «أرجوزته» نظر الملك شزرا للربيع قائلاً:
 أكذا أنت؟.. وطرده من مجلسه وأكرم وفد بنى عامر وقضى حوائجهم.
 ومن ذلك اليوم صار «لبيد» شاعر قومه، يعدد بالفخر أيامهم، ويدافع
 بالحماسة عن أنسابهم.. حيث يقول فى معلقته:

إنى إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمه جشامها
 فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها
 من معشر سنت لهم أبأؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
 لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

فعندما تلتقى القبائل يسودهم رجل من قومه يقمع الخصوم ويتجشم

عظائم الخصام، ويفعل ذلك تفضلا لأنه جواد، وهذه سُنَّة أسلافه،
فعقولهم لا تميل مع أهوائهم.
وماذا أيضا يا لبيد؟

وهم السعاه إذا العشيرة أفضت وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة أن يبطن حاسد أو أن يميل مع العدو لئامها

نعم كان لبيد فارسا وسيدا في قومه.. وكريما في عشيرته حيث
اعتاد سنويا أن يذبح المئات من النوق لإطعام اليتامى والجار الغريب
والقواعد من النساء اللاتي عجزن عن الحركة وتدبير شئونهن فتدثرن
بالخلق البالية.. حيث يقول:

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها
أدعو بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخضبا أهضابها
تأوى إلى الأطناب كل رزية مثل البلية قاص أهدامها

ولم يخل شعر لبيد - كبقية أصحاب المعلقات - من الحكمة ولكن
تميز شعره بسهولة الكلمات وبساطة المعاني، مع نفحة إيمانية.. فلكل
أجل كتاب لا تقدر ضاربات الحصى ولا أنصار التشاؤم والتفاؤل أن
تستكشفه أو تتنبأ به.

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بد يوما أن ترد الودائع

وما الناس إلا عاملان فعامل
يُتبر ما يبني، وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه
ومنهم شقى بالمعيشة قانع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى
وأى كريم لم تصبه القوارع؟
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويبدو أن شاعرنا عندما امتد به العمر.. قد سئم الحياة، فقد ولى
الشباب وطالت شيخوخته.. وتشابهت أيامه ولياليه:

ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال هذا الناس كيف ليبد
غلب العزاء وكنت غير مغلب	دهر طويل دائم ممدود
يوماً أرى يأتى علىَّ وليلة	وكلاهما بعد المضاء يعود
وأراه يأتى بعد يوم لقيته	لم ينصرم وضعفتُ وهو شديد

ويحكى أن عثمان بن مظعون جلس إلى جماعة من قريش ومعهم
ليبد.. فأنشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ

فقال له عثمان: صدقت.. فقال ليبد

وكل نعيم لا محالة زائلٌ

فقال عثمان: كذبت لأن نعيم الجنة لا يزول..!

أعشى قيس.. صناجة العرب

قال الأقدمون إن أشعر شعراء العرب فى الجاهلية أربعة.. هم: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير بن أبى سلمى إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وهم بذلك يعنون أن هؤلاء الشعراء كانوا يقولون أفضل أشعارهم فى الحالات الآتية: امرؤ القيس إذا ركب أى عندما يمتطى فرسه.. وكلنا نذكر قوله:

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنطلق قيد الأوابد هيكل
وكذلك قوله واصفا فرسه:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

أما النابغة فمشهور باعتذارياته للملك النعمان ملك الحيرة فقد رهب عقابه وأراد وصله: ومنها ما قاله:

أتانى أبييت اللعن أنك لتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
إلى آخر القصيدة.. ومنها أيضا:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وكذلك زهير بن أبى سلمى عندما يرغب فى مدح أحد الملوك أو
الأمراء أو شيوخ القبائل.. مثل:

تراك ما إذا جننته مهتلا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

أما الأعشى فقد لقب بصنّاجة العرب.. حيث كان يقول أجود الشعر
والذى تتغنى به المغنيات فى الدواوين والحانات، مثل قوله:

قالت هريرة لما جننت زائرها وىلى عليك ووىلى منك يا رجل
أما ترانا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نخفى وننتعل

وهو دليل الخفة والرقّة فى اللبس والمشى. والأعشى هو ميمون بن قيس..
ولقب بذلك بسبب ضعف بصره.. وأصابه العمى فى أواخر عمره بعد أن
طال الزمان به ووصل إلى التسعين، وسمى بأعشى قيس.. تمييزاً له عن
بقية الشعراء الذين لقبوا بتلك الصفة ومنهم أعشى بنى ربيعة وأعشى
همدان وأعشى بن سليم.. وغيرهم من فحول الشعراء فى الجاهلية.
وكانت لديه نقطة ضعف يهجوها بها الشعراء منها.. حيث لقب أبوه
قيس بن جندل بقتيل الجوع.. سماه بذلك الشاعر جهنم فى معرض
هجائه للأعشى.. حيث قال:

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من خماعة راضع

وخماعة التى يشير إليها جهنم هى قبيلة أمه وكانت قليلة العدد
والعدة وقصة أبيه أنه دخل غاراً يستظل به من الحر، ف وقعت صخرة
كبيرة من الجبل فسدت باب الغار، فمات جوعاً.

وقد قيل أيضا إنه سمي بصنّاجة العرب لأنه أول من أشار إلى الطريقة
الحسنة في الغناء لبعض الأبيات عندما تتغنى بها المغنية في ألقانه..
حيث قال:

ومستجيب لصوت الصنّج تسمعه إذا تُرّجِع فيه القينة الفضل

وقيل أيضا إنه أول من انتجع بالشعر.. أى عاش على ما كان يتلقاه
من أموال بسبب مدحه للملوك والأمراء وشيوخ القبائل.. مثل قوله مادحا
قيس بن معد يكره أحد زعماء القبائل العربية الكبرى في الجاهلية:

فجئتك مرتاد ما خبروا ولولا الذى خبروا لم ترن
فلا تحرمنى نداك الجزيل فإنى امرؤ قبلكم لم آهن

كذلك مدحه لهوذة بن على سيد بنى حنيقه:

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتى

أرجى نوالا فاضلا من عطائك

سمعت برحب الباع والجود والندى

فأدليت دلوى فاستقت برشائك

ولم يكن الأعشى يخجل من ذلك.. بل كان يردده فى شعره.. من
أنه طاف البلاد كلها لجمع المال ليتعيش منه ويغدق به على أصحابه
وخاصة فى مجالس الأتس وشرب الخمر:

وقد طفت للمال آفاقه عُمّان فحمص فأورشلم

أتيت النجاشى فى أرضه وأرض النبط وأرض العجم

فنجران، فالسرو من حمير فأى مرام له لم أرم

هكذا كان الأعشى.. شاعرا جيدا فى كل فن.. الهجاء، الفخر، الحكمة، الغزل، فهاهوذا يوبخ أحد فرسان بنى شيبان الذى أراد محاربة قومه (بنى قيس) أخذا لثأر لديه عندهم.. بل يحذره من ذلك:

أبلغ يزيد بنى شيبان مألکه أبا ثبيت أما تنفک تأتکل
کناطح الصخر يوماً لا لیوهنها فلم یضرها وأوهى قرنه الوعل

كذلك فخره بقبيلته.. ويذكر أعداءه بيوم معركة «العين» والتي دارت بمنطقة «فطيمة» بالبحرين حاليا.. حيث قاتلت قبيلته على خيلها.. كما تعاقل رجالها بالسيوف.. وجها لوجه:

نحن الفوارس يوم العين ضاحية جنبى فطيمة لا ميل ولا عزل
قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

أما عن الغزل.. فقد تغنى المغنون والمغنيات بأشعاره خاصة فى قصيدته اللامية والتي وصفها البعض بالملقنة الثامنة.. حيث يبدوها بمخاطبة محبوبته «هريرة» ويودعها بعد أن قررت الرحيل، ثم يصفها.. فيجيد الوصف حيث قال:

ودع هريرة إن الרכب مرتحل

وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل

كان مشيتها من بيت جارتها

مر السحاب لا ريث ولا عجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها

ولا تراها لسر الجار تختل

وللأعشى أبيات من الحكمة.. عبارة عن تأملات يصف فيها الموت

الذي يطوى الملوك والحصون والأمم والشعوب..:

أرقت وما هذا السهاد المورق وما بى من سقم وما بى معشق

ولكن أرانى لا أزال بحادث أغادى بما لم يمس عندى وأطرق

فما أنت إن دامت عليك بخالد كما لم يخلد ساسه ومورق

وكسرى وشاهنشاه قد سار ملكه له ما انتهى راح عتيق وزنبق

وأطرف ما يروى فى قصة الأعشى (ميمون بن قيس) أنه أدرك

الإسلام وأتى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يريد إعلان إسلامه ،

فلقيه أبو سفيان فاستوقفه وعلم غرضه فحذره: إن محمداً يحرم عليك

الخمير والزنا والقمار، فأجابه الأعشى: فأما الزنا فقد تركنى وما تركته،

وأما الخمير فقد قضيت منه وطرا، وأما القمار فلعلى أصيب منه خلفاً،

ثم أخذه أبو سفيان إلى بيته وجمع له سادة قريش وقال لهم هذا هو

الأعشى وتعلمون شعره، ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم العرب

قاطبة بشعره، فجمعوا له مائة ناقة حمراء فأخذها ورجع، فلما كان فى

منطقة اليمامة أوقعه بعيره عن ظهره.. فمات!

عمرو بن كلثوم.. قاتل ابن هند

هذا الشاعر من سادة العرب فى الجاهلية، وأعلامهم نسيا.. فقد كان أبوه كلثوم زعيم قبيلة تغلب الشهيرة، وأمه ليلى بنت الزير سالم وعمها الملك كليب، ولذلك كان من أعز الناس نفسا وأكثر العرب ترفعا.. ويقال إنه ساد قومه وهو فى الخامسة عشرة من عمره، وهو قاتل الملك عمرو بن هند بن المنذر أحد ملوك الحيرة بالعراق.. وكان سبب ذلك أن أم عمرو بن هند ادعت يوما أنها أشرف نساء العرب فهى بنت ملوك الحيرة وزوجة ملك وأم ملك، فقالت إحدى جليساتها: ليلى بنت المهلهل أشرف منك.. فعمها الملك كليب وأبوها الزير سالم (المهلهل) وزوجها كلثوم بن مالك أفرس العرب وولدها عمرو بن كلثوم سيد قومه، فأجابتها: لأجعلنها خادمة لى، ثم طلبت من ابنها الملك عمرو أن يدعو عمرو ابن كلثوم وأمه لزيارتهم، فكان ذلك..

وأثناء الضيافة حاولت أم الملك أن تنفذ نذرها فأشارت إلى «جفنة» على الطاولة وقالت: يا ليلى ناولينى تلك الجفنة، فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، ولكنها ألحت عليها.. ثم أمرتها بذلك.. فصرخت ليلى: واذا.. يا لتغلب! فسمعا ابنها عمرو بن كلثوم وكان جالسا فى حجرة مجاورة مع الملك.. فقام إلى سيف معلق وقتله به ثم أمر رجاله بالخارج بنهب كل ما فى القصر.

وقيل إنه من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية مع أن شعره قليل لا يخرج عن مجموعة من الأبيات المتفرقة تدور حول الفخر والحماسة..

وهو موضوع معلقته الشهيرة والتي قيل إنها كانت من ألف بيت ولم يحفظ الرواة سوى عدد قليل منها.

ومن أشعاره قصيدة قصيرة بعنوان «ألا من مبلغ» ينذر فيها ملك الحيرة عمرو بن هند.. ويفخر بقومه ويذكره بتحالفهما القديم:

ألا من مبلغ عمرو بن هند فما رعيت زمامة من رعيتا
أتغصب مالكا بذنوب تيم لقد جئت المحارم واعتديتا
فلولا نعمة لأبيك فينا لقد قضت قناتك أو ثويتا
وكنا طوع كفك يا ابن هند بنا ترمى محارم من رميتا
ستعلم حين تختلف العوالى من الحامون ثغرك إن هويتا

وهذه قصيدة أخرى يفخر فيها بنفسه وبصحبته ويتغزل بفتاة عربية من قبيلة معد (هالة)، ويشير إلى بنى جشم من قبيلة بكر أن يستعدوا للقتال:

أجمع صحبتي سحر ارتحالا ولم أشعر ببين منك هالا
ولم أر مثل هالة في معد تشبه حسنها إلا الهلالا
ألا أبلغ بنى جشم بن بكر وتغلب كلها نبأ جلالا
بأن الماجد البطل ابن عمرو غداة نطاع قد صدق القتالا

ونلاحظ أن معلقته الشهيرة تعد صورة لحياة العرب في ذلك العصر من حيث العادات والتقاليد.. وكذلك الحماسة والفخر.. وقد كتب الجزء الأول منها قبل مقتل ملك الحيرة عمرو بن هند، ثم أضاف إليها شاعرنا جزءاً آخر عن شجاعته وقتله للملك الذى حاولت أمه إهانة قومه فى

شخص أمه ليلي بنت المهلهل :

والمعلقة تبدأ بمناداة الساقية أن تستيقظ من نومها وتصحبهم بخمر
هذه القرى الجيدة التي إذا اختلطت بنبات الحَصّ والماء.. كانت أكثر
حرارة، وتنسى من يشربها همومه :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشة كأن الحَصّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا

ويستمر في وصف الخمر وأخبار البلاد حتى يصل إلى مخاطبة الملك
عمرو بن هند.. مفاخرًا بقومه وشجاعتهم وبياسلتهم في الحروب :

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقيننا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد رويننا
متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحيننا

ويستمر في ذلك الفخر حتى يصل إلى عتاب الملك.. فكيف يسمع
للوشارة فيهم وكيف تحتقرنا أمك وتعاملنا كالخدم ونحن الذين استعصينا
على من قبلك :

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتويننا
فإن قناتنا يا عمر أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

وينهى شاعرنا معلقته بفخر لم أقرأ مثله من قبل.. فهم السادة
والقادة.. وغيرهم أتباع لهم، وهم لا يقبلون الذل من أحد حتى ولو كان
ملكا، وقد ضاق البر عن خيولهم والبحر عن سفنهم، وإذا بلغ الصبي
فيهم وقت الفطام سجدت له الجبابرة:

ونشرب أن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما الملك سام الناس خسفا	أبيننا أن نقر الذل فينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي	تخر له الجبابر ساجدينا

□□□

كعب بن زهير.. صاحب بردة الرسول

هو كعب بن زهير، شاعر جاهلي مجيد من نجد، أبوه الشاعر المعروف زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوام.. وكلهم شعراء.

كان كعب يهوى الشعر ويتكلم به، ولكن أباه كان ينهاه عن ذلك مخافة أن يقول شعرا غير مستحکم، فيروى له مالا خير فيه، ولكنه لم يكن يرتدع، مما اضطر أباه لضربه.. ثم حبسه وبعد عدة أيام أطلق سراحه وكلفه برعاية الغنم.. ثم سمعه يرتجز.. ويقول:

وانى لتعدينى على الهم جسة تخب بوصول صروم وتعنقُ
فضربه أبوه وقال: أجز بالكع، فقال كعب:

منير هداه ليله كنهاره جميع إذا يعلو الحزونة أفرق
وكان زهير يتعسف فى وصف النعام والإبل حتى يعلم مدى تمكن ابنه من الشعر، وبعدها أذن له بقوله..

ثم تصادف أن قال زهير بيتا ونصفاً من الشعر وعجز عن استكماله، فمر به النابغة، فقال له: أبا أمامة.. أجز، فقال: وما قلت: فأنشدته:

تزيد الأرض إما مت خفا وتحيا إن حييت بها ثقيلاً
نزلت بمستقر العرض منها

ولكن النابغة أيضا عجز عن استكمال شطر البيت، حتى جاء كعب وكان مازال غلاما فأخبره أبوه بالموضوع.. فأنشد على الفور:

وتمنع جانبيها أن يزولا

فضمه زهير إليه، وقال: أشهد أنك ابني! وبعد وفاة زهير، ذهب الشاعر المعروف «الحطيئة» الملقب بالجرول وكان راوية لشعر زهير وأبنائه إلى كعب وقال له: تعلم روايتي لكم وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فماذا لو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب:

فمن للقوافي شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعب فوَّز جرول
يقول فلا تعبأ بشيء يقوله ومن قائلها من يسىء ويعمل
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا تنخل منها مثل ما يتنخل
يثقفها حتى تلين متونها فيقصر عنها كل ما يتمثل

وعندما دعا الرسول الكريم إلى الإسلام، كان كعبا قد بلغ من الشعر والشهرة حظا وافرا، وعندما أسلم أخوه بجير وبخه وطلب منه الرجوع عن دين لم يكن عليه أحد من آباءه.. ولم يكتف بذلك.. ولكنه هجاه ثم هجا النبي أيضا:

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا؟
فبيّن لنا إن كنت لست بفاعل على غير شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم ألف يوما أبا له عليه وما تلفى عليه أبا لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية فانهلك المأمون منها وعلكا

وعندما تسلم بجير خطاب أخيه اطلع رسول الله عليه ، فلما سمع قوله (سقاك بها المأمون) قال: صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون، ثم رد بجير عليها بقوله:

فمن مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهى أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
فدين زهير هو لا شىء دينه ودين أبى سلمى على محرم

وبعد فتح مكة كتب بجير لشقيقه كعب يخبره بأن رسول الله قد أهدر دمه ، ونصحه بالتوبة وأن يسرع بالقدوم إلى النبى فى المدينة ولكن كعباً خشى من العقاب، وذهب إلى أبى بكر يستنجد به، فأخذ الصديق إلى النبى وهو فى المسجد وطلب له الأمان، وأنشده قصيدته المشهورة والتي مطلعها.

بانئت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
والتي يقول فيها:

نبتت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعىظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فى الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

فاستحسن الرسول قوله وعفا عنه، ثم خلع عليه برده، والتي احتفظ بها أبناؤه حتى اشتراها منهم الخليفة الأموى معاوية بن أبى

سفيان بعشرين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويون، ثم بيعت
للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور بأربعين ألفاً، ثم آلت بعد الخلافة
العباسية إلى العثمانيين!

المهم أن شاعرنا حسن إسلامه وأخذ يقول شعره متضمنا حكما
ومواعظ: ومما قاله:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني

سعى الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمر ليس يدركها

والنفس واحدة والهـم منتشر

والمرء ما عاش ممدود له أمل

لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

ومن أشعاره أيضا تلك الأبيات التي تدل على الزهد في الدنيا
والإيمان بقضاء الله وقدره..

وإن يدركك موت أو مشيب فقبلك مات أقوام وشابوا

تلبثنا وفرطنا رجالا دعوا وإذا الأنام دعوا أجابوا

كما له مجموعة أبيات يفخر فيها بنفسه وأبيه وقومه.. وهي عادة

عربية لم تنقطع!

فإن تسأل الأقوام عنى فإننى

أنا ابن أبي سلمى على رغم من رغم

أنا ابن الذى قد عاش تسعين حجة
فلم يخز يوماً فى معد ولم يلم
وأكرمه الأكفاء فى كل معشر
كرام فإن كذبتنى فاسأل الأمم
أنا ابن الذى لم يخزنى فى حياته
ولم أخزه حتى تغيب فى الرجم

□□□

طرفة بن العبد.. الغلام القتييل

هو عمرو بن العبد الملقب بـ «طرفة»، مات صغيراً عن عمر يناهز الـ ٢٦ عاماً، ولذلك لقب باسم «الغلام القتييل»، وكان ينتمي لأسرة عرفت بكثرة شعرائها من جهة الأب والأم، فعماه المرقشان، وخاله جرير بن عبد المسيح الشهير بـ «المتلمس»، وكان في صباه معجباً بنفسه يتمخض في مشيئته، مات أبوه وهو صغير فأنصرف إلى حياة اللهو وشرب الخمر.. وكان هجاء جريئاً.

ولما رفض أعمامه أن يعطوه نصيبه من الميراث.. راح يرعى إبل أخيه «معبد» إلا أنها سرقت منه، فذهب لابن عمه يستغيث به فنهره وطرده واشتد عليه، فتوجه إلى الحيرة حيث ملكها عمرو بن هند وكان عنده خاله المتلمس.

وبعد فترة غضب عليه الملك وأمر بقتله وهنا تعددت الروايات في أسباب القتل، فمنهم من قال إن الملك لم تعجبه مشيئته وإعجابه بنفسه فحقد عليه وقرر قتله، ومنهم من قال إنه كان يشرب الخمر مع الملك وظهرت أخته فرأى خيالها في الكأس الذي في يده فقال:

ألا يا ثاني الظبي الذي يبرق شنفاه

ولولا الملك القاعد قد أئتمنى فاه

أما الرواية الثالثة فتقول إنه هجا الملك بعدة أبيات.. منها:

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخي كذاك الحكم يقصد أو يجور

المهم أن الملك قرر قتله لأى من الأسباب السابقة، ولكن بعض جلسائه حذروه من ذلك.. حتى لا يهجوهُ المتلمس (خال طرفة)، بعدها كتب الملك لكل من طرفة والمتلمس كتاباً إلى المعلى عامله على البحرين بأن يقتلها وأعطاهما هدية من عنده، فلما غادرا الحيرة التقيا غلاماً فى الطريق فأعطاه المتلمس كتابه ليقرأه، فإذا به: (باسمك اللهم.. من عمرو بن هند إلى المعلى.. إذا أتاك كتابى هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً)، فألقى المتلمس بالرسالة فى النهر.. وأنشد:

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل رأى مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار فى كل جدول

ثم طلب من طرفة أن يفعل مثله.. ولكنه رفض فتركه وهرب إلى الشام، وسار طرفة وحده حتى وصل إلى البحرين وأعطى عاملها الرسالة، وعندما علم بما فيها أوعز إليه بالهرب لما كان بينه وبين الشاعر من نسب، فرفض أيضاً، فحبسه وكتب إلى عمرو بن هند قائلاً: (ابعث إلى عمك من تريد فإنى غير قاتله)، فبعث الملك رجلاً من قبيلة تغلب، وأتى بطرفة إليه فقال له: (إنى قاتلك لا محالة.. فاختر لنفسك مية تهاواها). فقال: (إن كان ولا بد فاسقنى الخمر.. ثم اقطع كاحلى) ففعل وتركه حتى مات.. وعندما علم المتلمس بما حدث قال:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم نبأ فتصدقهم بذلك الأنفس

أودى الذى علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس
هذا هو شاعرنا الذى مات صغيراً، ولكنه ترك ديواناً من ٦٥٧ بيتاً،
ومعلقة عدت من أفضل الشعر العربى بما حوته من غزل ووصف وفخر
وحكمة.

وتبدأ معلقته - كعادة شعراء الجاهلية - بالوقوف على الأطلال
وذكر الحبيبة «خولة» ووصفها، حيث لها آثار بمنطقة تلمع بالحجارة
والحصى.. وتبرق كالوشم على ظاهر اليد:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد
ووجه كأن الشمس ألفت رداءها عليه نقى اللون لم يتخذ
ثم يصف ناقته التى يذهب بها للملاقة حبيبته، أو يسير بها فى
الصحراء بغير خوف ولا وجل:

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعرجاء وفال تروح وتغدى
لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما باب منيف ممرد
أى أنها ناقة سريعة لا تتعب من السير، وقد اكتمل لحم فخذيهما
حتى سارا كأنهما باب لقصر ضخم.

وبعد أن ينتهى من وصف ناقته فى أبيات عديدة ينتقل إلى الفخر
بنفسه، فهو الفتى المتواجد دائماً فى المهمات أو فى الدفاع عن القوم،
وكما يسارع بحل خيمته للحاق بالقوم فى قتال الأعداء:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إننى
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

ليس ذلك فقط، ولكنك تجده فى محفل القوم أو فى الحانات، فهو
يجمع بين الجد والهزل، وإذا افتخروا فإنه أوفرهم حظا من الحساب
والنسب.

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وإن تلتمنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى
إلى ذروة البيت الشريف المعمد

وأيتها اللائم على ما أنا فيه.. لا تلمنى.. فلن تستطيع دفع القدر إذا
جاءت منيتى:

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدي

ثم يتذكر ظلم أهله له.. وهو أشد قسوة من ضرب السيف، مع أنه
الشاب الضراب خفيف اللحم.. سريع الحركة كراس الحية:

وظلم نوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد
ثم ينهى معلقته بحكمة.. بأن الأيام لا تخفى شيئاً، وستأتيك الأخبار
من كل مكان.. حتى ممن لم تطلب منه ذلك:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبغ له بقاتا ولم تضرب له وقت موعد



عامر بن الطفيل.. حفيد أم الأربعة!

هذا الشاعر الفارس يضيق المقام عن ذكر مناقبه : معاركه وانتصاراته وأشعاره وتصرفاته مع معاصريه ، إنه عامر بن الطفيل بن مالك من بني عامر من قيس مضر، كان جده مالك فارسا وشاعرا، وكذلك أعمامه الخمسة والذين اشتهر كل منهم بصفة خاصة به : أبو براء عامر ملاعب الأسنة ، وطفيل الخيل والد شاعرنا، وربيع المقترين والد الشاعر المعروف وصاحب المعلقة الوليد بن ربيعة، ونزال المضيق سلمى، ومعوذ الحكماء معاوية، وجدته هي أم البنين والتي افتخر بها لبيد أمام النعمان بن المنذر.. عندما قال:

نحن بنى أم البنين الأربعة
المطمعون الجفنة المددعة
والضاربون الهام تحت الخيضة
يارب هيجا هي خير من دعه

وقيل إنه قال «أربعة» وهم خمسة إما لوزن الشعر أو لأن أباه ربيعة كان قد مات وبقي أعمامه الأربعة.

وقد ولد شاعرنا عامر بن الطفيل في الجاهلية قبل نزول القرآن بسبعة وخمسين عاما، وكان من أبطال العرب المعدودين الذين يخشى جانبهم، فقد كان يجيد ركوب الخيل والطعن بالرمح والضرب بالسيف وهو هنا

يصف نفسه :

لقد تعلم الحرب أنى ابنها وأنى الهمام بها المعلم
وأنى أحل على رهوة من المجد فى الشرف الأعظم
وأنى أكر إذا أحجموا بأكرم من عطفه الضيغم
وأضرب بالسيف يوم الوغى أقدم به حلق البرم

وعلى الرغم من فروسيته وشاعريته إلا أنه عرف بخصال مذمومة منها عنجهيته وجفاء طبعه وظلمه وبخله.. كما كان عقيما لا ينجب، وعندما شاخ عمه أبو براء عامر ملاعب الأسنة، أراد قومه أن يسودوه عليهم، فأبى أن يتولى الزعامة عن وراثته، فهو ليس فى حاجة لأمجاد قومه.. وإنما لديه ما يؤهله من السيادة عليهم، وهو القائل:

إنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المندوب فى كل موكب
فما سود تنى عامر عن قرابة أبى الله أن أسمو بأمر ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب
وقد قاد عامر قومه فى معركة «فيف الريح» وهو مكان قرب نجد وكانت بين قومه تحالف مع قبائل اليمن «بنى الحارثة»، وقد كان النصر فيها لبنى عامر، إلا أن مسهر بن يزيد الحارثى فاجأه من خلفه وطعنه برمحه فأصاب عينه فقأها، فوثب عامر عن فرسه ونجا جريا على رجليه والدم يسيل من عينه.. وقد ذكرها فى شعره وكذلك فرسه «المنوق» حيث يقول مفاخرا بقبيلته العليا «هوازن» وجده جعفر:

لقد علمت عليا هوازن أننى
أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أنى أكره
على جمعهم كر المنيح الشهر
إذا أزور من وقع الرماح زجرته
وقلت له: ارجع مقبلا غير مدبر

ويستمر فى وصف المعركة وما جرى فيها إلى أن يصل إلى ذكر حادثة
إصابته بالعور، وإن كان فقد عينه لم يقفد شجاعته وإقدامه:

لعمري، وما عمري على بهين
لقد شان حر الوجه طعنة مسهر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا
جبانا، فما عذرى لدى كل محضر
وقد علموا أنى أكر عليهم
عشية فيف الرياح كر الدور

هكذا كان عامر فارسا شجاعا مشهورا بين العرب، حتى إن قيصر
ملك الروم كان إذا قدم عليه أحد من العرب سأله: ما بينك وبين عامر
بن الطفيل؟ فإذا ذكر صلة ما.. عظم عنده، كما ذكر أيضا أن النعمان
بن المنذر أرسله على رأس وفد من العرب إلى ملك الفرس كسرى، فتكلم
عامر بين يدي الملك فأظهر غلظة وخشونة فى القول، فقال له كسرى:
متى تكاهنت يا عامر؟ فأجاب: لست كاهنا ولكنى بالرمح طاعنا، فقال

كسرى: فإن أتاك من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟ قال: ما هيبتي في قفاى بدون هيبتي فى وجهى!

وكذلك لم ينس التاريخ غدره بأصحاب النبى عند بئر معونة، فقد جاء عمه عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) إلى الرسول بالمدينة وأهدى إليه هدية، فأبى النبى أن يقبلها، وقال لا أقبل هدية مشرك، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك، ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن، فلم يسلم ولم يرفض وقال: يا محمد إن الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فيدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال النبى: إنى أخشى عليهم من أهل نجد، فقال أبو البراء: أنا لهم جار، فبعث الرسول النذر بن عمرو فى أربعين رجلا فنزلوا فى مكان يقال له «بئر معونة» فخرج عليهم عامر مع قوم من بنى سليم فقتلهم إلا واحدا أعتقه - بعد أن أسره - وعندما علم عمه بذلك غضب غضباً شديدا واستدعاه وانقض عليه بطعنة وقعت فى فخذه فجرحته ولم تقتله.

هكذا كان عامرا شديد البأس بطاشا ظلوما.. وقد كان يردد:

لقد تعلم الخيل المغيرة أننا إذا ابتدر الناس الفعال أسودها
على ربد يزداد جودا إذا جرى وقد قلقت تحت السروج لبودها
وقد خضبت بالماء حتى كأنما تشبه كمت الخيل منهن سودها

وقد أدرك عامر حدا من العنجهية والاعتداد بالذات، لم يبلغه أحد من فرسان العرب قبله، فبعد أن علم بانتصارات النبى ومبايعة القبائل

له أراد أن يشاطره السلطان، فجاءه في وفد من قومه بصحبة أريد شقيق الشاعر لبيد بن ربيعة، وقد اتفق هو وأريد على قتل النبي، ولكن أريد لم يجرؤ على ذلك، واحتج بأنه كلما هم بضرب النبي يرى عامرا حائلا بينهما، وقد ساوم عامر النبي على اعتناق الإسلام بشرط أن يكون له سكان الخيام وللنبي سكان المدينة وأن يكون له نصف ثمارها فأنكر النبي طلبه، فخرج متوعدا: لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا، ولأربط بكل نخلة فرسا، فقال النبي: اللهم اكفني عامرا، واهدي بني عامر.

وفيما كان عامر عائدا إلى نجد ومعه أريد، سقطت صاعقة على أريد فقتلته، وأصيب عامر بالطاعون في عنقه، وكان يعالج في بيت امرأة من قبيلة سلول.. وهي من القبائل المستضعفة، فكان يصيح ألما وغيظا: يا موت ابرز لي، أعدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية؟ وظل كذلك إلى أن هلك! أما لماذا كنى عمه مالك بملاعب الأسنة، ومعاوية بمعود الحكمة فلكل من ذلك قصة، فقد كان هناك معركة بين قيس ومنها بنى عامر وقبائل تميم سميت بيوم «سوبان» حيث فر منها أخوه طفيل الخيل والد شاعرنا، وتركه وحده بالمعركة، وهو ما وصفه الشاعر أوس بن حجر فيما بعد:

فررت وأسلمت ابن أمك عامرا يلاعب أطراف الوشيح المزعزع
يلاعب أطراف الأسنة عامر وراج له خط الكتيبة أجمع
فسمى مالك بملاعب الأسنة «الرماح»، أما عمه معاوية ابن مالك،

فقد حاول التوسط بين قبائل كعب لرأب الصدع بينها، بعدما تفرقت وصارت بينها الأحقاد.. وفي ذلك يقول معاوية في أحد قصائده:

رأيت الصدع من كعب فأودى وكان الصدع لا يعد ارتئابا
حملت حمالة القرشى عنهم ولا ظلما أردت ولا اختلابا
أعوذ مثلها الحكماء بعدى إذا ما الحق في الأشياع نابا
وبهذا سمي معود الحكماء..



دريد بن الصمة.. قتييل حنين

هو دريد بن الصمة بن الحارث من بنى غزية من بن جشم بن هوازن، كان أبوه وأعمامه من فرسان قومهم المعدودين، وأمه ريحانة بنت معد أخت فارس اليمن المشهور عمرو بن معد يكرب، وقد أسرها أبوه في إحدى غزواته وتزوجها بعدما علم بنسبها، أما أن ينجب منها فرسانا وهو ما حدث بالفعل حين أنجبت له خمسة ماتوا كلهم في غزوات لهم، وقد غزا دريد حوالي مائة غزوة، ولم يغلب سوى في اثنتين منها، وقد أصيب في إحداها وقتل في الأخرى، ولكنه صنع مع إخوته ووالديه وأعمامه مجدا لقومهم جعل العرب تفتخر بأن يكون من بين قتلها أحد من بنى جشم بن بكر، وهو ما عبر عنه الشاعر عمرو بن كلثوم في معلقته حين قال:

وأما يوم لا نخشى عليهم فذم عن غارة متلببينا
برأس من بنى جشم بن بكر ندق بها السهولة والحزونا

وقد عمّر دريد طويلا حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم، وخرج مع قومه في معركة حنين، مظاهرا للمشاركين، غير مشارك في الحرب، ولكنهم أخرجوه معهم تيمنا به وللاستماع لمشورته.. وقد خطب دريد الشاعرة الخنساء بعد أن أعجب بها عندما رآها تداوى ناقثها.. وقال فيها:

حيّوا «تماضر» وأربعوا صحبى وقفوا فإن وقوفكم حسبى
أحناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب

ولكنها رفضته على الرغم من علمها بمن هو.. قائلة لأخيها معاوية
وكان صديقا له ولأبيها: يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى
الرماح، وناكحة شيخ بنى جشم؟.. وعندما سمع دريد قولها هجاها
فردت عليه بهجاء مماثل.

وقد أنجب دريد ولده «سلمة» وكان شاعرا فارسا، وكذلك ابنته
(عمرة) وكانت أيضا شاعرة.. وقد ذكرهما فى الكثير من أشعاره.

ووصف دريد بأنه كان شاعرا فحلا.. وقيل إنه كان فى بعض أشعاره
أفضل من النابغة الذبياني وخاصة فى مرثيته التى قالها فى إخوته، فقد
قتل إخوته الأربعة فى معارك مختلفة، فشقيقه خالد قتله بنو الحارث
بن كعب حين هب مدافعا عن جيرانه وحلفائه، وقيس قتله بنو أبى
بكر بن كلاب، وعبد يغوث قتله بنو مرة، أما عبد الله وكان شقيقه
الأكبر فقد قتل فى غزوة له ضد قبيلة غطفان، وكان معه دريد وكاد
يقتل فيها أيضا.

وها هو ذا دريد يصف بطولات إخوته وعائلته فى مرثية جميلة
تعد من عيون الشعر العربى، حيث يفخر دريد بنفسه وإخوته، فهم
لا يفارقون السيف قاتلين أو مقتولين، فقد كان لحمهم طعاما للسيوف
وكذلك لحم أعدائهم وهم لا يتركون ثأرهم وقسموا عمرهم نصفين: نصف
للإغارة، ونصف للدفاع، ولا حياة لهم غير ذلك.

تقول ألا تبكى أخاك وقد أرى
 مكان البكا لكن بنيت على الصبر
 فقلت أعبد الله أبكى أم الذى
 له الشرف الأعلى قتيل أبى بكر
 وعبد يغوث تحجل الطير حوله
 وعز مصابا جثو قبر على قبر
 أبى القتل إلا آل صمة أنهم
 أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
 فإنا للحم السيف غير نكيرة
 ونلحمه حيناً وليس بذى نكر
 يغار علينا واترين فيشتفى
 بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
 بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة
 فما ينقضى إلا ونحن على شطر

ولدريد عدد من الأبيات المشهورة يرددها محبو الشعر وقراؤه قالها
 ضمن قصيدة طويلة يسجل فيها ما حدث فى معركة «يوم اللوى» التى
 كانت بين قومه وقبيلة غطفان، حيث خرج هو وأخوه عبد الله فأغاروا
 على غطفان، فأصابا منهم إبلا كثيرة واستاقوها عائدين، وهم فى الطريق
 نزل عبد الله عن الركاب ليريح ويستريح ويقسم المال بين أصحابه،
 فنهاه دريد ونصحه بالسرعة حتى «تنجو وتنجو معك» إلا أن عبد الله

أخذته الحمية ورفض الاستماع لرأى شقيقه ، فهاجمتهم غطفان وقتلت
عبد الله وأصابت دريدا واستردت إبلها ، وفى ذلك يقول شاعرنا :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى
غوايتهم وأننى غير مهتدى
وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد
فإن تعقب الأيام والدهر تعلموا
بنى قارب إنا غضاب بمعبد

لقد نصحهم ولكنهم لم يستمعوا له ، ونظرا لأنه من قبيلة غزية فهو
يسير خلفها إذا غزت أو أرشدت ، كما يهدد من قتلوا شقيقه «بنى
قارب» للأخذ بثأره.

ثم يصف كيف قتل شقيقه ، وأنه حاول حمايته دون جدوى فقد هب
إليه بفرسه الذى يصفه فى بيتين نافس فيهما امرؤ القيس عندما وصف
فرسه.. حيث قال :

وغارة بين اليوم والليل فلتة
تداركتها ركضا بسيد عمرد
سليم المشطا عبل الشوى شنج النسا
طويل القرا نهداً سبل المقلد

لقد أغار على فرسه الذى شبهه بالذئب.. كما أنه سليم العظم غليظ القوام، نفر منه عرق النسا بسبب كثرة حركة قدميه.. كما أنه طويل الظهر أملس المستوى.

وتمر الأيام ويعاود دريد غزو بنى عطفان للانتقام لأخيه وأخذ ثأره.. وهنا يصف ماذا فعل بغطفان وبنى عبس وفزارة، وقتله ذؤاب بن أسماء قاتل أخيه بعد أن أسره وعاد به إلى قومه ورفض فديته.. وقتله أمام أمه ريحانة لتبرد نارها!

يا راكبا إما عرضت فبلغن أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب
قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زبد بن قارب
وعبسا قتلناهم بحر بلادهم بمقتل عبد الله يوم الذئاب

ويستمر فى ذكر العشائر والقبائل التى هزمها وقتل فرسانها أو أسرهم إلى أن يختم بقوله: لبيت القبور التى يدفن فيها قتلتنا تخبر عنا، لقد أشبعنا الضباع والذئاب الجائعة بلحومهم:

فليت قبورا بالمخاضة أخبرت فتخبر عنا الخضر خضر المحارب
رد سناهم بالخيل حتى تملأت عوا فى الضباع والذئاب السواغب

وقد قتل دريد فى يوم حنين بعد أن هزم المشركون وتفرق جمعهم، وهرب الناجون منهم إلى بعض القرى ومنهم دريد الذى طارده رجل من بنى سليم وعندما لحق به سأله دريد: من أنت وماذا تريد؟ فأخبره الرجل أنه ربيعة بن ربيع السلمى.. وضربه بسيفه فلم يصبه، فقال له دريد: بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفى هذا ثم اضرب به، وارفع عن

العظام، واخفض عن الدماغ، كما كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت
أمك فأخبرها أنك قتلت دريدا بن الصمة وكان دريد قد أعتق ثلاث نساء
من بنى سليم بعد أن أسرهن فى إحدى غزواته.

□□□

شاعر الاستقامة .. معن بن أوس!

فيا عجباً لمن رببت طفلاً ألقمه بأطراف البنان
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى
أعلمه الفتوة كل وقت فلما طر شاربه جفانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

هذه الأبيات كنا نردها جميعاً كمثل وحكمه على من لا يقدر
المعروف ولا يصونون العهد والذين ينقلبون على من علمهم وأكرمهم ..
وبمعنى آخر يعضون الأيادى التى امتدت لهم .. وعلمتهم بعد جهل
وأغنتهم بعد فقر!

المهم أننا كنا نردد تلك الأبيات فى المناسبات المختلفة ولم يكن
أغلبنا يعلم أنها للشاعر المخضرم معن بن أوس المزنى والذى أدرك
الإسلام واعتبر من أفضل شعراء العصر الإسلامى مع كعب بن مالك
وحسان بن ثابت وغيرهما .. وقد قال شاعرنا الأبيات السابقة فى قريبه
الشاعر العربى المعروف عمرو بن أبى ربيعة، وقد شهد له الخليفة
الأموى عبد الملك بن مروان أنه من أشعر الناس، حيث تصادف أن كان
فى مجلسه جمع غفير، وطلب أن يقول كل منهم أفضل شعر سمع به،
فذكر البعض أبياتاً لامرؤ القيس وآخرين لكل من الأعشى وطرفة بن العبد
وغيرهما، وبعد أن انتهوا قال عبد الملك: أشعرهم - والله - الذى يقول:

وذى رحم قلمت أظافر ضغنه
 بحلمى عنه وهو ليس له حلم
 إذ سمته وصل القرابة سامنى
 قطيعتها، تلك السفاهة والإثم
 ويسعى إذا أبنى لهدم صوالحى
 وليس الذى يبني كمن شأنه الهدم
 يحاول رغمى لا يحاول غيره
 وكالموت عندى أن ينال له رغم
 فمازلت فى لين له وتعطفى
 عليه كما تحنو على الولد الأم
 لأستل منه الضغن حتى سلته
 وقد كان ذا حقد يضيق به الجرم

وهو هنا أيضا يتحدث عن المعروف الذى لم يصادف أهله، فهذا
 شخص ذو قرابة «يكره» من حوله، وهو يحاول معه ويوصله وهو يقاطعه،
 ولم يكتف بذلك، ولكنه يحاول إرغامه على أشياء ولكن الشاعر يواصل
 الحنو عليه كما تحنو الأم على وليدها، حتى تمكن فى النهاية من انتزاع
 الكره من قلبه!!

ونظرا لأن شاعرنا ولد فى العصر الجاهلى - أى قبل الرسالة
 المحمدية - فقد عاصر عمليات وأد البنات، وكان هو يحسن صحبة
 بناته وتربيتهن، بينما لاحظ أن بعض أقاربه يظهر الجزع والكره إذا

ولدت له بنت، ولذلك قال :

وأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام تعثر بالفتى عوائد لا يملئنه ونوائح

وهو هنا يتساءل كيف يكره الرجال بناتهم وفيهن - مستقبلا - نساء صالحات.. فهي الأم والأخت والزوجة.. بل عندما يعطى الدهر ظهره لأى فتى تجدهن من يتحمله ويرعاه!

وكثيرا ما كان يخاطب شباب قومه بالحفاظ على العادات والتقاليد القبلية الأصيلة، وألا يسيئوا بتصرفاتهم لآبائهم أو يضيعوا ما تركوه لهم.. حيث يقول:

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته بناة السوء أوشك أن يضيعا

ولشاعرنا قصيدة جميلة بعنوان «لعمرك ما أهويت كفى لريبة» يتحدث فيها عن استقامته وترفعه عن الصغائر والضغائن وتجنبه للفواحش وإكرامه للضيف.. حيث يقول:

لعمرك ما أهويت كفى لريبة
ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها
ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
وانى حقا لم تصبنى مصيبة

من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماشٍ ما حييت لمنكر
من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثرا نفسى على ذى قرابة
وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

ونختم بقصيدته التى يفتخر بها بقبيلته «مزينه» وكيف كانوا
يتعاملون مع الأصدقاء، وماذا فعلوا بالأعداء:

فيا أيها المرء الذى ليس صامتا
ولا ناطقا أن قال فصلا ولا عدلا
إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تكن
كحاطب ليل يجمع الدق والجزلا
مزينه قومى إن سألت فإنهم
لهم عزة لا تستطيع لها نقلا
نقول فيرضى قولنا ونعينه
ونحن أناس نحسن القيل والفعلا
فكم من عدو قد أباحت رماحنا
وكم من صديق نال من سيبنا سجلا

□□□

الزير سالم.. الفارس المهلهل

وتلك قصة أخرى اختلط فيها الحق بالباطل والحقيقة بالخيال، وتحولت إلى «سيرة شعبية» كما حدث مع عنتر بن شداد وأبو زيد الهلالي من أبطال العرب في الجاهلية، إنها قصة حرب البسوس وبطلها الشاعر عدى بن ربيعة التغلبي والذي لقب بالمهلهل، حيث كان يلبس ثيابا مهلهلة بعد مقتل أخيه كليب، وقيل أيضا إنه أول من «هلهل» الشعر أى كذب فيه.. حيث قال:

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور

وهناك من قال إنه سمي بهذا اللقب بسبب قوله:

لما توغل فى الكراع هجينهن هلهلت أثار مالكا أو سنبلا

كما لقب أيضا بأبى ليلى.. وهى إحدى بناته التى تزوجت أحد فرسان العرب (كلثوم) والد الشاعر عمرو بن كلثوم، ولقب كذلك بالزير سالم، حيث لقبه بذلك أخوه كليب «زير النساء» أى جليسهن. أما قصة حرب البسوس فقد كانت بين أبناء العمومة قبيلتى تغلب وبكر أولاد وائل بن ربيعة.. وقيل إنها استمرت أربعين عاما، وكانت بسبب قيام كليب زعيم قبيلة تغلب بقتل ناقة سيدة تدعى البسوس، وكانت مقيمة عند ابن أختها جساس فارس قبيلة بكر، والذي انتقم لخالته بقتل كليب، وعندما علم المهلهل بقتل شقيقه، اعتزل الخمر

والنساء وجمع قومه للانتقام، ولكنهم أرسلوا وفدا إلى مرة الشيباني ولجساس فقالوا له: إنكم قتلتم كليبا بناب من الإبل، ونحن نكره العجلة عليكم دون الإعذار إليكم، ونحن نعرض عليكم أربعة خيارات لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع، الأول: أن تحيي لنا كليبا، والثاني أن تدفع إلينا جساسا قاتله فنقتله به، الثالث: تدفع لنا بأخيك همام فإنه كفء له، والرابع: أن تمكنا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه، فقال لهم: أما إحيائي كليبا فهذا مالا يكون، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل، ثم ركب فرسه لا أدرى أين ذهب، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه لي لأدفعه إليكم ليقتل بجريرة غيره، وأما أنا فما أتعجل الموت.. ولكم عندي خياران: فهؤلاء أبنائي - كانوا تسعة بخلاف جساس-، فخذوا منهم أحدهم واذبحوه، وإلا فألف ناقة أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل، فغضبوا منه وقالوا: لقد أسأت، ترذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب.. وانصرفوا عائدين إلى قومهم، هذا في ذات الوقت التي تركت «جليلة» امرأة كليب منازلهم، وعادت إلى قومها بنى بكر وكانت حاملا، ثم بدأت الحرب بين القبيلتين، وسميت أيام المواجهات بيوم النهى، ويوم زبيد، ويوم واردات، ثم عويرضات، ثم ضرية، ثم القصيبات، وكلها أسماء لأماكن أو جبال أو آبار مياه دارت الحروب حولها أو فيها، وكلها انتصرت فيها تغلب على بكر وقتل منهم المهلهل الكثير، ثم تدخل أحد أبناء العمومة وهو الحارث بن عبادة وأرسل ابنه بجيرا إلى المهلهل ليطلب منه إنهاء الحرب، فقد قضى على أبناء عمومته،

ولكنه قتله، فقاد الحارث بنى بكر والتقى تغلب فى معركة تحلاق اللمم
أو يوم الفصيل فغلبها وأسر المهلهل.

وهى المعركة التى يصفها شاعر بنى بكر فيما بعد.. طرفة بن العبد
بقوله :

سائلوا عنا الذى يعرفنا مالمقوا فى يوم تحلاق اللمم
يوم تبدى البيض عن أسوقها وتلف الخيل أعراج النعم

المهم أنه عندما عاد الوفد وأخبر المهلهل بما حدث وما قاله زعيم
بكر أنشد يقول :

يا لبكر أنشروا لى كليباً يا لبكر أين أين الفرار؟
تلك شيبان تقول لبكر صرح الشر وبان السرار

أى أعيدوا إلى أذى كليباً! وإلا القتل الذى ليس منه فرار، كما
أخبرتكم شيبان، أنها الحرب. ولا بديل عنها! ثم توعدهم بالإبادة:

قتلوا كليباً ثم قالوا: أربعوا كذبوا ورب الحل والإحرام
حتى نبيد قبيلة وقبيلة قهرا وتفلق بالسيوف الهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

لقد أقام المهلهل لأخيه مناحه دائمة.. مستخدماً شعره لإثارة قومه
لأخذ ثأر أخيه:

إن فى الصدر من كليب شجوناً هاجسات نكأن منه الجراحا
أنكرتنى خليلتى إذ رأتنى كاسف اللون لا أطيق المزاحا

كيف أسلو عن البكاء وقومى قد تفانوا فكيف أرجو الفلاحا

وكانت جليلة امرأة كليب قد وضعت حملها فكان صبيا أسمته الجرو وتربى مع أخواله ولما نشأ وعرف ما حدث لأبيه.. وأن خاله جساسا هو قاتله.. هرب إلى أعمامه من بنى تغلب وهو يردد: وفرسى وأذنيه وناصيته وعينيه، ورمحى وطرفيه وسيفى وشفرتيه لا يدع الرجل قاتل أبيه ينظر إليه، ثم أخذ يطارد خاله جساس حتى قتله وهو يقول:

ألم ترنى ثارت أبى كليباً وقد يرجى المرشح للذهول
غسلت العار عن جشم بن بكر بجساس بن مرة ذى البتول

أما المهلهل فقد مرض مرضا شديدا- بعد أن أخلى سبيله من الأسر- وأرسله ابن أخيه الجرو (الهجرس) إلى مصر مع عبيدين للعلاج.. فقتلاه، ولكنه أنشدهم بيتين وطلب منهما أن يبلغا ابن أخيه بهما، وعندما عاد أخبراه أن حية لسعته فمات، ثم أنشدها البيتين:

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أضحى قتيلا فى الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فتأكد الجرو أن العبيدين قتلا عمه.. وهكذا كانت نهاية المهلهل الذى أباد قبيلة بكاملها انتقاما لأخيه كليب!



العباس بن مرداس

الشاعر والفارس العباس بن مرداس من بنى سليم، وأمه الشاعرة الخنساء بنت عمرو، وكان سيدا فى قومه من كلا الطرفين، وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام.. فأسلم بعد أن وفد على الرسول على رأس وفد كبير من قومه.

وتروى بعض الكتب قصة طريقة لإسلامه.. ملخصها أن كان لأبيه صنم يتعبد إليه اسمه «ضمار» فلما حضره الموت أوصى ابنه به، فنقله إلى أحد البيوت، وأخذ يتردد عليه بين الحين والآخر، وعندما ظهر رسول الله وجاهر بالدعوة أتاه صوت وهو نائم يقول له:

قل للقبائل من سليم كلها هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى الضمار وكان يعبد مرة قبل الكتاب إلى النبى محمد

فصحا العباس من نومه واتجه إلى إبله فأوصى بها راعيه، وأخبره أنه ذاهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثم أحرق الصنم (ضمار) واتجه إلى مكة وهو يقول:

لعمري أنى يوم أجعل جاهدا ضمارا لرب العالمين مشاركا
وتركى رسول الله والأوس حوله أولئك أنصار له، ما أولئك؟
فأمنت بالله الذى أنا عبده وخالفت من أمسى يريد المهالك

نبيا أتانا بعد عيسى بناطق من الحق فيه الفصل منك كذلك
ووجهت وجهي نحو مكة قاصدا وتابعت بين الأخشبين المباركا

وقد لحق عباس بالرسول في المدينة المنورة، حيث أراد السير إلى
مكة عام الفتح، فواعده الرسول أن يلقاه وقومه في منطقة تسمى «قديد»
حيث لقيه فيما بعد ومعه ألف من بنى سليم، وفي ذلك يقول شاعرنا:

عشية واعدنا قديدا محمدا يوم بنا أمرا من الله محكما
حلفت يميننا برة لمحمد فأوفيته ألفا من الخيل معلما

وقد ترك العباس العديد من القصائد في حب الرسول صلى الله عليه
وسلم ودور قومه بنى سليم في نصرته الإسلام.. منها تلك القصيدة التي
يقول فيها:

يا خاتم الأنبياء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمداً أسماكا

وفي قصيدة أخرى جميلة يبدأها بمناشدة «يا أيها الرجل الذي
تهوى به».. إذا أتيت النبي.. فحبا عليك أن تقول له:

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس
بك أسلم الطاغوت واتبع الهدى وبك انجلى عنا الظلام الحندس

وفي قصيدة أخرى أيضا بعنوان «من مبلغ الأقوام أن محمدا» يشير
فيها إلى دعاء الرسول لربه واستنثاره وحده.. فأوفى الله له وأنعم عليه
بالكثير، ومنها انتصاره على أعدائه يوم حنين، وفي هذا يشير عباس

إلى مشاركة بنى سليم فى النصر:

فإن سراة الحى إن كنت سائلا
وجند من الأنصار لا يخذلونه
سليم وفيهم منهم قد تسلما
أطاعوا فما يعصونه ما تكلما
سمونا لهم ورد القطارفة ضحى
وكل نراه عن أخيه قد أحجما
لدى غدوة حتى تركنا عشية
حيننا وقد سالت مدامعه دما

ولكن مشكلة شاعرنا أن إسلامه وتدينه كان ضعيفا نسبيا، وهو ما ظهر بعد غزوة حنين فى ردة فعله على ما قام به الرسول من توزيع الغنائم على بعض «المؤلفة قلوبهم» من الذين دخلوا الإسلام حديثا ومنهم صديقه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فأكثر لهم وأقل لغيرهم ومنهم شاعرنا ابن مرداس.. حيث قال:

وكانت نهابا تلافيتها
بكرى على المهر فى الأجرع
وايقاضى الحى أن يرقدوا
إذا هجع القوم لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيد
بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون أمرئ مفهما
ومن تضع اليوم لا يرفع

فبلغ قوله رسول الله، فدعاه ولامه على ما يقول وتدخل أبو بكر يخفف من وقع ما وصل النبى من شعر عباس، فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه، وأمر بأن يعطى من الإبل والشاة ما يرضيه ليمسك! ومع ذلك يظل شاعرنا فارسا مدافعا عن الإسلام، وقد شارك فى

الكثير من الحروب والفتوحات الإسلامية حتى قتل مع أشقائه الثلاثة في معركة القادسية، كما يظل عباس شاعرا مجيدا يستشهد بشعره في المناسبات المختلفة، ومنها الأبيات التي استشهد بها كل من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير في مخاطبتهما لبعضهما، حيث قال عبد الملك إلى عبد الله يتوعده:

إني لعند الحرب تحمل شكتي إلى الروع جرداء السيادة ضامر
فيرد عليه الأخير بأبيات من شعر عباس أيضا:

إذا فرس العوال لم يخالج همومي غير نصر واقتراب
وأنا والسوابح يوم جمع وما يتلو الرسول من الكتاب
هزمتنا الجمع جمع بنى قسى وحكّت بركها ببني رثاب

وله قصائد أخرى يعلن فيها أنه كره الحرب وندم على ما مضى من عمره قبل الإسلام.. هذا مع أنه.. وكما يقول:

وكانت سليم إذا قدمت فتى للحوادث كنت الفتى
وكنت أفىء عليها النهاب وأنكى عداها وأحمى الحمى

أو تلك التي يعاتب فيها قومه على عتابهم له.. ويناشدهم التخفيف مما تضيق به صدورهم ضده أو تحكيه ألسنتهم عنه:

أراني كلما قاربت قومي نأوا عنى وقطعهم شديد
متى أبعد فشرهم قريب وأن أقرب فودهم بعيد
سئمت عتابهم فصفحت عنهم وقلت لعل حلمهم يعود

كما له مجموعة من الأبيات.. تمثل حكمة بالغة وهي ألا تنخدع
بالمظهر حيث يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدرية وفي أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطير فتلتقيه فيخلف ظنك الرجل الطير
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
فالشجاعة ليست بالنحافة أو السمانه فضعف الطير أطولها جسوما
وضعاف الأسد أكثرها زئيرا..

□□□

النابغة الجعدى.. الشاعر التقى

وهذا شاعر آخر سكت عن الشعر ثلاثين عاما، ثم تفجر على لسانه ونبغ فيه مع قدوم الإسلام، فسمى أيضا بالنابغة، إنه عبد الله بن قيس الجعدى، الملقب بـ «أبو ليلى» وكان شاعرا يمينيا ملتزما فى الجاهلية.. حيث هجر عبادة الأصنام وكان يصوم، وعندما أسلم تميزت قصائده بالروح الإسلامية القوية، فتضمنت البعث والتوحيد والجنة والنار.

وقد شهد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة، وكان موضع احترامهم وتقديرهم، كما شهد فتح فارس محاربا، وانحاز إلى على بن أبى طالب فى غزوة «صفين»، وعندما تولى معاوية الخلافة أمر عامله على المدينة مروان بن الحكم بأخذ أمواله، إلا أن النابغة هدد بهجاء بنى أمية فرد له ما أخذ منه، ويقال إنه عاش طويلا ومات فى أصفهان إحدى المدن الإيرانية (حاليا).

ويروى أنه وفد على النبى مع قومه وأنشد قصيدته التى يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله النبى صلى الله عليه وسلم: أين المظهر يا أبا ليلى؟.. فأجاب:
«الجنة» يا رسول الله، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أجل إن شاء الله، ثم أكمل:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرها
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيم إذا ما أورد الأمر أصدرها
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا فض الله فاك..

واستقر النابغة الجعدى فى المدينة ولم يرجع مع قومه إلى منازلهم
وعندما بدأت الفتوح الإسلامية خرج مجاهدا مع الجيوش العربية،
وأخذ يضيف إلى القصيدة التى خاطب بها النبى أبياتا جديدة تصور
جهاده وتقواه.. حيث قال:

وجاهدت حتى ما أحس ومن معى
سهيلاً إذا ما لاح ثمت غورا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها
وكنت من النار المخوفة أوجرا

وعندما حدث الخلاف بين «على ومعاوية» انحاز للأول وحضر معه وقعة
«صفين» مقاتلا، ثم أنشد أشعارا يمدح فيها عليا ويهجو معاوية.. ومنها:

قد علم المصران والعراق أن عليا فحلها العتاق
إن الألى جاروك لا أفاقوا لهم سياق ولكم سياق
قد علمت ذلكم الرفاق سقتم إلى نهج الهدى وساقوا
إلى التى ليس لها عراق فى ملة عادتھا النفاق

فقد خاطب أهل المصريين (الكوفة والبصرة) بأن عليا هو الخليفة
الكريم وقد جاورتموه وتعلمون نهجه، بينما غيركم سيقوا إلى ملة عادتھا

النفاق ولا يعلم أحد غاياتها، ويقصد بهم أنصار معاوية!
وقد تكرر الأمر مرة أخرى.. فعندما دعا عبد الله بن الزبير لنفسه
فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية، قدم عليه الجعدى فى مكة ومدحه
بقصيدة رائعة يقول فيها:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا

وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس فى العدل ما استَووا

فعاد صباحا حالك الليل مظلم

ومع انحيازاته السياسية المتكررة والتي كانت تؤدى به كل مرة إلى
التهلكة، إلا أنه كان شاعرا تقيا متأثرا بالقرآن وهو ما عكسته أشعاره..
ومنها قصيدته الشهيرة التى تصور فيها كيفية الخلق من النطفة حتى
تمام الخلق الكريم:

الحمد لله لا شريك له

من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل فى النهار وفى الليل

نهارا يفرج الظلما

الخافض الرافع السماء على الأرض

ولم يبين تحتها دعما

الخالق البارئ المصور فى الأرحام

ماء حتى يصير دما

من نطفة قدرها مقدرها
 يخلق منها الأبخار والنسما
 ثم عظاما أقامها عصب
 ثم لحما كساه فالتأما
 ثم كسا الرأس والعواتق أبشارا
 وجلدا تخالاه أدمما
 والصوت واللون والمعاش والأخلاق
 شتى وفرق الكلمما
 ثم لا بد أن سيجمعكم
 والله، جهرا، شهادة قسما
 فأتَمروا الآن ما بدا لكم
 واعتصموا إن وجدتم عصما
 فى هذه الأرض والسماء ولا
 عصمة منه إلا لن رحما

كما أن له أبياتا أخرى جميلة تنبع بالحكمة والموعظة الحسنة :

المراء يرغب فى الحياة	وطول عيش قد يضره
تغنى بشاشته ويبقى	بعد حلو العيش مرة
وتسوءه الأيام حتى	ما يرى شيئا يسره
كم نامت بى إن هلكت	وقائل لله دره

الجرول الحطيئة.. الشاعر الشتام!

هو أبو بكر مليكة جرول بن أوس العبسي، لقب بالحطيئة لقربه من الأرض، فضلا عن ضعف جسمه ودمامة وجهه، ولد لجارية تسمى الضراء كانت عند أوس ابن مالك العبسي، ونشأ في قبيلة عبس مغمورا مذلولاً بسبب عدم صحة نسبه، وهو ما جعله يعيش وحيدا منفردا بأحزانه، منبوذا من القبائل الأخرى، فاتخذ الشعر سلاحا يهتك به أعراض الناس ويبتزهم ويدفع عدوان الآخرين عليه.

ومع ذلك فقد كان شاعرا قوى العبارة بديع البناء غزير المعاني تتلمذ على يد الشاعر الكبير زهير ابن أبي سلمى، وروى له ولأبنائه من بعده، ولكنه اشتهر بالهجاء حتى إنه لم يسلم أحد من لسانه، وعندما لا يجد من يهجوّه كان يهجو نفسه، فقد شاهد وجهه في بئر ماء.. فقال:

أبت شفتاي اليوم ألا تكلما بشر فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجهها شوه الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله
كذلك لم تسلم أمه أو السيدة التي قامت على تربيته من هجائه،
فقد قال فيها:

جزاك الله شرا من عجوز ولقاك العقوق من البنينا
أغربا لا إذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا؟
تنحى فاجلسي مني بعيدا أراح الله منك العالمينا

وقد ولد الحطيئة فى الجاهلية، ولكنه عاش طويلا وأدرك الإسلام
فأسلم ثم ارتد وأعان المرتدين بشعره:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فى لعباد الله ما لأبى بكر
أيورها بكرا إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وفى عهد عمر بن الخطاب هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر التميمي
وكان سيد قومه يجمع منهم الصدقات يوزعها على فقراء المسلمين، ولم
يصل للحطيئة شىء من العطايا فقال فيه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

أى أنت المطعوم المكسوء، فلا تدعى الكرم بتوزيعك صدقات قومك،
فاشتكاه الزبرقان إلى الخليفة عمر فحبسه، فأخذ الحطيئة يستعطفه
بأبياته المشهورة:

ماذا لك تقول لأفراخ بنى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مُظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها
لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فامنن على صبية بالرمل مسكنهم

بين الأباطح يغشاهم بها القدر

فعفا عنه عمر بعد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجو أحدا ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم! ومع ذلك فقد عاد للسباب والهجاء بعد استشهاد عمر، فقد سأل أمه عن أبيه، فلم تكن صريحة معه وخلطت عليه الكلام، فقال:

تقول لك الضراء لست لواحد

ولا اثنين، فانظر كيف شرك أولئكا

وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللته

هبلت ألما تستفق من ضالكا

وكما كان الحطيئة هجاءً شتاما.. كان أيضا بخيلا، فقد روى أنه كان يجلس في فناء بيته، فوفد عليه رجل غريب، فلم يحسن الحطيئة استقباله، ولكن الرجل غلبه التعب ونام بجوار المنزل فقال الحطيئة:

وسلم مرتين فقلت مهلا كفتك المرة الأولى السلاما

ونقنق بطنه ودعا رؤاسًا لما قد نال من شبع وناما

ومع ذلك فقد كان الحطيئة شاعرا مجيدا.. قوى العبارة غزير المعاني
وها هو ذا يمدح إحدى القبائل التي أكرمته وأجزلت له العطاء:

يسوسون أحلاما بعيد أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُد

أولئك قوم إن بنسوا أحسنوا البُنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وعندما تقدم به العمر.. كان ينطق شعرا يتصف بالحكمة، ومما قاله
فى ذلك :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
ولعل أطرف ما قيل عن هذا الشاعر الهجاء، أنه عندما شعر بقرب
أجله أوصى أن يعلق على كفنه :

لا أحد الأم من حطيئة هجا البنين وهجا المريئة

فقال له من كانوا حوله : يا أبا مليكة، رحمك الله أوص، فقال :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

فقالوا له : هذا مثل الذى كنت فيه، فقال :

قد كنت أحيانا شديد المعتمد وكنت أحيانا على الخصم ألد
فوردت نفسى وما كادت ترد

فقالوا له ماذا تطلب، فقال : تحملونى على أتان (بغل) وتتركونى
راكبها حتى أموت، فإن الكريم لا يموت على فراشه، والأتان مركب
لم يمت عليه كريم قط، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون
عليها حتى فاضت روحه إلى بارئها!



همام بن غالب.. (الفرزدق)

هو همام بن غالب بن صعصعة من دارم من مجاشع من قبيلة تميم والتي كان لها شأن كبير في الجاهلية والإسلام، كنى أبا فراس.. إحدى صفات الأسد، ولقب بالفرزدق لجهومة وجهه وأثر من الجدرى منطبع فيه، ومن أطرف ما قيل حول لقبه أنه قدم نفسه لأحد الشيوخ الذى حاول تجاهله: أنا الفرزدق، فسأله: ومن الفرزدق؟.. فرد أو ما تعرفه؟.. فأجاب الشيخ: إنه شيء تتخذه النساء عندنا بالمدينة تتسمن به، وهو الفتوت، فضحك الفرزدق طويلا ثم قال: الحمد لله الذى جعلنى فى بطون نسائكم!

وقد كان الفرزدق شديد الفخر بأبيه وجده وقومه، وقيل إن أباه ذبح مائة ناقة مرة واحدة ليطعم منها القوم فى عام الجذب، كما اشتهر جده صعصعة بأنه ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ونهى عن قتلهن، وقيل إنه فدى أربعمائة منهن، وافتخر الفرزدق بتلك الحادثتين ورددهما كثيرا فى شعره.. ومما قاله:

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والنجم يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجزر على القبر يعلم أنه غير مخفر

وتزوج الفرزدق الكثير من النساء، أولهن النوار ابنة عمه والتي تزوجها بخدعة، حيث وكلته فى عقد زواجها من أحد شباب العشيرة،

إلا أنه استعمل التوكيل لنفسه وتزوج بها بغير رضاها، ثم صالحها وعاشت معه وأنجبت منه عدة أبناء سماهم بأسماء غريبة مثل: حبطة، ولبطة، وسبطة، كما كان له ابنة واحدة «مليكة» من جارية سوداء.

ويروى أن الفرزدق نطق الشعر مبكرا، وقد اصطحبه أبوه إلى أمير المؤمنين على ابن أبي طالب بعد موقعة «صفين» الذى نصحه بتعلم القرآن وحفظه، وقد كان الفرزدق يرعى غنم لوالدته، فتغافل عنها فهجم الذئب عليها والتهم منها كبشا، فقال شعرا يبرر فيه ما حدث بسبب جوع الذئب وإهماله هو، ثم يعتذر لوالدته عما حدث، ويقول فى نهاية الأبيات إن همته أعظم من الرعى.. فهو يطمح إلى عظام الأمور

تلوم على أن أصبح الذئب ضأنها فألوى بكبش وهو فى المرع راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهر عليه ببؤس وهو ظمأن جانع
أغار على خوف وصادف غرة فلاقى التى كانت عليها المطامع

وذلك إلى آخر القصيدة، الذى عاد مرة أخرى ليحكى عن صداقته للذئب الذى دعاه إلى وليمة، على الرغم من حذره منه، وهى قصيدة جميلة قلده فيها بعد ذلك كل من البحترى والشريف الرضى، حيث يبدأ بوصف الذئب بالأغبر المختال الذى جاء على النار التى أوقدتها، فأخذ يطعمه متحفظا بسيفه فى يده حذرا منه :

وأطلس عسال وما كان صاحبا دعوت لنارى موهنا فأتانى
فلما أتى قلت ادن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان
وبت أخذ الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان

وقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفى فى يدى بمكان
 تعيش فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
 وقد ترك الفرزق ديوانا ضخما للشعر، لا يتسع المجال هنا إلا لذكر
 بعض منه، فقد وصف بأنه «كان صحيفة العرب» وقيل إنه «لولا الفرزدق
 لضاع الكثير من الأخبار وثلت اللغة». .. فقد سجل بشعره القضاء على
 الخوارج، وأيضا محاولات عبد الله بن الزبير استلاب الخلافة بعد
 الحسين بن على لنفسه، ومحاولات الحجاج وأد الفتنة فى العراق.
 كذلك تصديه لهشام بن عبدالملك عندما حاول تجاهل زين العابدين بن
 الحسين فى موسم الحج، حيث خاطبه مرتجلا:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
 والبيت يعرفه والحل والحرم
 هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
 بجده، أنبياء الله قد ختموا
 وليس قولك: من هذا؟.. بضائره
 العرب تعرف من أنكرت والعجم
 ما قال: لا، قط، إلا فى تشهده
 لولا التشهد كانت لاؤه نعم

ومع ذلك فقد مدح هشام بن عبد الملك واعتذر له عن ذنب لم يرتكبه،
 تماما كما اعتذر النابغة للنعمان ملك الحيرة فى الجاهلية:

خليفة أهل الأرض أصبح ضوءه
به كان يهدى للهدى كل مهتد
فلست أخاف الناس مادمت سالما
ولو أجلب الساعى إلى بحسدى
ولا ظلم ما دام الخليفة قائما
هشام وما عن أهله من مشرد
فلا دفعت إن كنت قلت الذى رووا
على رداى حين ألبسه يدى

وقد تميز الفرزدق بالمدح والهجاء، وكان أكثر هجائه فى رفيق دربه
جرير وسوف نتحدث عن ذلك لاحقا، فقد استمرت المعركة بينهما
أربعين عاما، ولكننا نكتفى هنا بمعايرته لجرير بذكر مناقب قومه
وعزتهم.. ويسأله أين أنت من ذلك؟

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا بناه لنا المليك وما بنى
حكم السماء، فإنه لا ينقل
أحلامنا تزن الجبال رزاة
وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك - إن أردت بقاءنا -
ثهلان ذا الهضبان هل يتحلحل؟

كما عرف عن الفرزدق حبه للخمر وعشقه للنساء ومطاردتهن، وله قصيدة طويلة يروى فيها كيف سعد لإحداهن على الجبال، وهي تذكرنا بلهو كان من امرئ القيس وعمرو بن أبي ربيعة، إلا أنه في آخر أيامه أخذ يندم على ما اقترفه من ذنوب، وقال قصيدة هاجم فيها إبليس:

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبى وتم تمامى
فررت إلى ربي وأيقنت أننى ملاق لأيام المنون حمامى

كما روى أنه مرض مرضا شديدا، ووصف له الكى والنقط شرابا، فسقوه فقال: اتعجلون على شراب أهل النار فى الدنيا، ثم أوصى بعنق عبيده بعد موته، ثم قال مخاطبا من حوله:

أرونى من يقوم لكم مقامى إذا ما الأمر جلّ عن الخطاب
إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم على من التراب؟
فقال أحد عبيده معزيا: نفزع بعدك إلى الله.. فأبطل الفرزدق وصيته فيه وأمر ببيعه قبل وفاته استمرارا فى العبودية!.



جرير.. مدينة الشعر

هو الشاعر رقيق الحس، عف اللسان، سهل المعاني، قوى التعبير، إنه جرير بن عطية الخطفي، والذي لقب بأبي حرزة (أكبر أبنائه)، وكذلك بابن المراغة وهو لقب وصفت به أمه من أحد الشعراء الذين هجوه.

تميز جرير عن رقيقه: الأخطل والفرزدق في الغزل والرثاء كما نازعهما في الهجاء، ولكن مشكلته أنه ولد في فرع فقير من قبيلته الكبرى تميم، وهو يربوع، وكانت أسرته بنو كليب رقيقة الحال، يرعون الغنم والحمير، لا خيل لهم ولا جمال عندهم! ومن ثم نشأ بدويا فقيرا في منطقة نجد، ولكن في أسرة عرفت الشعر أجيالا، حيث كان جده ثم أبوه، ومن بعده أولاده وأحفاده، ينشدون الشعر ويجيدونه، كذلك إخوته عمرو وأبو الورد.

تزوج جرير من أكثر من واحدة وأنجب له عشرة من الولد منهم ثمانية ذكور، وكان ينصح أولاده وأحفاده بأن أطيلوا الهجاء وأقصروا المادحة، وقال عن نفسه: «إني لمدينة الشعر.. منها يخرج وإليها يعود..».

عرف جرير الشعر وصاغه مبكرا، وجاء شعره سهلا مباشرا خاليا من التكلف والحشو والتعقيد، فانتشر وجرى على الألسنة، فمن منا لم يردد بيته الشهير والذي يهجو فيه الفرزدق «زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا، أبشر بطول سلامة يا مربع» وأيضا كان شعره الغنائي الجميل «العيون

القاتلة» والتي تغنى بأبياتها صداح العرب الفنان الكبير صباح فخري.

إن العيون التي فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

والطريف أن تلك القصيدة الجميلة «العيون القاتلة» كان ينوى بها هجاء الشاعر الأخطل، إلا أنه كعادة الشعراء القدامى بدأ بالاسترسال فيها مع نفسه ووجدته وذكرياته، فى شعر عذب ناعم، وهيام عميق.. كاد ينسيه غرضه.. وهو الهجاء، ومما قاله فيها أيضا:

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة
ردى على فؤادى كالذى كانا
ألست أحسن من يمشى على قدم
يا أملح الناس كل الناس إنسانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى
لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم
إلا على العهد حتى كان ما كانا

وكعادة الشعراء فى كل عصر، التحق جرير مع رفيقيه الأخطل والفرزدق بالأمويين وخاصة آل مروان، فمدحهم ودافع عنهم، وها هو ذا يفضلهم عن سواهم ويذكر صلة الخلافة بالدين.

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليت ولا هيباه ورع
يا آل مروان إن الله فضلكم فضلا عظيما على من دينه البدع

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان سمع بشعره فى الحجاج واليه
على العراق، فاغتاظ وتمنى لو صار إليه، فبعث به إليه مع ابنه محمد
فاستقبله عبد الملك معاتبا: ما داعى أن تقول فينا بعد قولك بالحجاج
عاملنا.

من سد مطلع النفاق عليهم أمن يصول كصوله الحجاج؟
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضى البصيرة واضح المنهاج

ثم أكمل الخليفة: إن الله لم ينصرنا بالحجاج، إنما نصر دينه
وخليفته، وظهر الغضب على وجهه، فتوسط ابن الحجاج بينهما، ثم
أنشد جرير قصيدته المشهورة والتي يقول فيها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
لكم شم الجبال من الرواسى وأعظم سبل معتلج البطاح

فتبسم عبد الملك، وقال: كذلك نحن، ومازلنا كذلك، وأمر له بعطية
كبيرة، ومن بعدها لزمه جرير، ومدح أبناءه الوليد وسليمان ويزيد.
وكان جرير معجبا بالخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث اعتبره خير من
أناب إلى الله، ورعى حقوقه، وأقام حدوده، وأدى الأمانة العظمى صابرا
فحزنت الدنيا لوفاته، وبكت الشمس لفقده.. وقال يرثيه بعد وفاته:

تنعى النعاعة أمير المؤمنين لنا
 يا خير من حج بيت الله واعتمرا
 حملت أمرا عظيما ما اضطبرت له
 وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
 فالشمس طالعة ليست بكاشفة
 تبكى عليك نجوم الليل والقمر
 لقد كان جرير يجيد الرثاء بل تفوق فيه على رفيقيه الأخطل
 والفرزدق، وله قصيدة «الجوساء» يرثى فيها زوجته أم حرزة:
 لولا الحياء لعادنى استعمار
 ولزرت قبرك والحبيب يزار
 ولقد نظرت وما تمتع نظره
 فى اللحد حيث تمكن المحضار
 وكذلك عندما رثى ابنه سواده، الذى توفى فى حياته، وهى من
 المراثى التى كان يرددها الشاعر المعروف بشار بن برد إعجابا بكلماتها:
 فارقتنى حين كف الدهر من بصرى
 وحين صرت كعظم الرمة البالى
 أمسى سوادى يجلو مقلتى لحم
 باز يصرصر فوق الربأ العالى
 وكذلك مرثيته الشهيرة لصديقه اللدود، ورفيق دربه الفرزدق:

لعمري لقد أشجى تميما وهدها
على النكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفرّاق بنعشه
إلى جدث فى هوة الأرض معمق
لقد غادروا فى اللحد من كان ينتمى
إلى كل نجم فى السماء محلق
عماد تميم كلها ولسانها
وناطقها البذاخ فى كل منطق

أما الهجاء فقد كان زعيمه.. وكتب السيرة مليئة بما يسمى بالنقائض
وهى الحرب الشعرية بينه وبين الفرزدق والأخطل، ونكتفى هنا بالإشارة
إلى هذين البيتين اللذين عدا من عيون الفخر والهجاء معا:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وتميم كانت القبيلة الأم، أما نمير فعشيرته الفرزدق وكليب وكعب
عشائر جرير!



الأخطل الكبير

هو غياث بن غوث التغلبي، كنى بأبي مالك (أكبر أبنائه) ولقب بالأخطل، وذلك لسففه الشديد وكثرة هجائه للناس، مع أنه عرف الشعر مبكرا، وعندما كبر كان أحد ثلاثة يعدون من فحول الشعراء وهم الأخطل وجريير والفرزدق، شعراء العصر الأموي والذين حدث بينهم هجاء وتلاسن كبير.. وهو ما عرف فيما بعد بشعر «النقائض» أي أن يقوم كل شاعر بذكر نقيصه مشهورة في شاعر آخر أو في قبيلته، وقد انحاز الأخطل إلى الفرزدق في معركته الشعرية مع جريير.

وقد لقب النقاد شاعرنا بالأخطل الكبير، لأن هناك أخطل آخر عرفه الشعر العربي الحديث، وهو الشاعر اللبناني المشهور بشارة الخوري والذي لقب بالأخطل الصغير وتغنت بأشعاره كل من فيروز ونجاة وغيرهما.

كما عرف شاعرنا بشاعر بني أمية، حيث كان أغلب مديحه فيهم، وخاصة مروان بن عبد الملك وابنه يزيد والذي استعان به في صد هجوم أحد شعراء الأنصار على بني أمية ونسائهم، فقد أطلق الأخطل لسانه في الأنصار وجعلهم دون قريش مكانة وشرفا، وجعل اللؤم تحت عمائمهم، ووصفهم بالجبن والتخاذل عند القتال.

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار
فذروا المعالي لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار

والطريف أنه على الرغم من أن أمه كانت نصرانية وأبوه كذلك ، فإن والده طلق أمه وتزوج بأخرى.. كان كثير الشجار معها، فلقبته دويلا وهو الحمار الصغير، المهم أنه عندما اتصل بخلفاء بنى أمية وأصبحت له حظوة كبيرة فى بلاط الحكم قصر مديحه عليهم ومما قاله فيهم :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا
هم الذين يبارون الرياح إذا قل الطعام على العاقين أوقتروا
بنى أمية، نعماكم مجللة تمت، فلا منة فيها ولا كدر

وتروى كتب السيرة وديوانه الكثير من القصائد التى تميزت برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها، وخاصة مدائحه فى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والتي تعد من درره الشعرية، حيث يقول فيها:

وقد جعل الله الخلافة فيكم
بأبيض لا عارى الخوان ولا جذب
ولكن رآه الله موضع حقها
على رغم أعداء وصدادة كذب
أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا
موالى ملك لا طريف ولا غضب

ولم يكتف الأخطل بمدح الأمويين من آل مروان، بل إنه كان كالداعية السياسية لبنى أمية، فقد نوه فى إحدى قصائده بانتصار معاوية بن أبى سفيان (أول خليفة أموى) فى موقعة «صفين» وأن الله اختارهم للخلافة، حيث قال :

ويوم صفين والأبصار خاشعة أمدهم - إذ دعوا من ربهم - مدد
وأنتم أهل بيت لا يوازيتهم بيت إذا عُدت الأحساب والعدد
وله أبيات جميلة يشبه فيها يزيد بن عبدالمك بن أنبياء الله يوسف
وهارون ونوح وداود :

أما يزيد فإنى لست ناسيه حتى يغيبنى فى الرمس ملحود
جزاء يوسف إحسانا ومغفرة أو مثل ما جرى هارون وداود
أو مثل ما نال نوح فى سفينته إذ استجاب لنوح وهو منجود
أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه فى جنة نعمة منها وتخليد

أما فى الفخر.. فقد تفوق الأخطل على زميله جرير والفرزدق، وهو
هنا يهاجم إحدى عشائر قبيلة قيس والتي كانت على خلاف دائم مع
قبيلته تغلب، وكيف ينفيهم الناس عن المياه، ولم تكن تأخذهم بهم
هوادة ولكنهم كانوا ينالون منهم أشد أنواع العقاب.

إذا احتضر الناس المياه نفيتم

عن الماء حتى يصبح الحوض خاليا

أجحاف ما من شح ذاق حربنا

فيقلت إلا ازداد عنا تناهيا

وما تمنع الأعداء منا هوادة

ولكنهم يلقون منا الدواهيا

كما كان شاعرنا يتميز بالحكمة، وها هو ذا هنا يبكى شبابه الذى

لن يعود، فلن ينفع مع الشيب أى دواء، كما أنه يقارن بين الشباب
البشوش والشيب الذى ينصرف عنه الناس:

هل الشباب الذى قد فات مردود
أم هل دواء يرد الشيب موجود؟
لن يرجع الشيب شبانا ولن يجدوا
عدل الشباب لهم ما أورك العود
إن الشباب لمحمود بشاشته
والشيب منصرف عنه مصدود
وقد كان الأخطل يحب الخمر ويهواها ويسعد بتناولها:

صهباء قد كلفت من طول ما حبست
فى مخدع بين جنات وأنهار
عذراء لم يجتل الخطاب بهجتها
حتى اجتلاها عبادى بدينار
فالخمر المعتقة كالعذراء، والعبادى هنا هو بائع الخمر.

□□□

الأمير الشاعر.. يزيد بن معاوية

هذا واحد من الأمراء الشعراء لم يكن فارسا مقداما مثل أبي فراس الحمداني، وذكر أن سبب وفاته.. سقوطه من على ظهر حصانه، وقد حيرنى كثيرا، إنه يزيد بن معاوية ثانى خلفاء بنى أمية بعد أبيه معاوية ابن أبي سفيان، وتروى كتب التاريخ أنه أمر عبد الله بن زياد والى الكوفة بمحاربة الحسين بن علي وأتباعه.. فهزمهم فى كربلاء، وبعد مقتل الحسين فى المعركة حملت رأسه ووضعت أمام اليزيد فى مقر حكمه بدمشق الشام.. فأخذ يعيبث بها بعضا كانت فى يده، ولم يحترم حرمة الموتى التى أوصانا بها ديننا وجبلت العرب جميعا على احترامها على مر الزمان، فكيف لمثل هذا (الإنسان) الذى عبث برأس حفيد الرسول بعد أن فصلت عن جسده.. يصدر عنه هذه الأشعار الناعمة وتلك القصيدة الرائعة (وعضت على العناب بالبرد) والتى تغنى بها الكثير ومنهم مطرب السودان الشهير عبد الكريم الكابلى.

والمشكلة أن كل من كتب عن أشعار اليزيد وقصيدته.. أشار إلى أنه كان مرهف الحس رقيق الطبع.. وأن عنف السياسة ومكرها لم ينعكس على أشعاره.. حيث يقول فى إحدى قصائده:

خذوا بدمى ذات الوشاح، فإننى رأيت بعينى فى أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها بلى، خبروها بعد موتى بمأتمى
إنه يطلب بثأره من تلك الحسناء التى رأى دمه فى أناملها، والثأر

عنده ألا يقتلونها إذا عثروا عليها وإنما يخبرونها بموعد مآتمه بعد
مماته !!

والغريب أنه يقول في ذات القصيدة إنه عندما التقاها عاتبها على
هذا الدم الذى رآه فى أصابعها فكان ردها عليه :

وعيشك ما هذا خضابا عرفته
فلا تك بالبهتان والزور متهمى
ولكننى لما رأيتك نائيا
وقد كنت لى كفى وزندى ومعصمى
بكيت دما يوم النوى، فمسحته
بكفى، وهذا الأثر من ذلك الدم

بمعنى أنها لم تتزين قط بعد رحيله، ولكنها بكت عليه كثيرا حتى
أسقطت دما، وعندما أرادت مسحه بكفيها علق الدم بأناملها!
أما القصيدة التى نحن بصدها فبدأها بوصف محبوبته وكيف فعلت
به.. فيقول:

نالت على يدها ما لم تنله يدي
نقشا على معصم أو هت به جلدى
كأنه طرف نمل فى أناملها
أو روضة رصعتها السحب بالبرد
وقوس حاجبها من كل ناحية
ونبل فعلتها ترمى بها كبدى

مدت مواشطها فى كفها شركا
تصيد قلبى به من داخل الجسد
أنيبة لو رأتها الشمس ما طلعت
من بعد رؤيتها يوما على أحد
سألتها الوصل، قالت: لا تغرّ بنا
من رام منا وصالا مات بالكمد

هذه الأبيات الجميلة الناعمة.. ذكرتنى بأبيات أخرى لا تقل جمالا
قالها الشاعر العربى عبد السلام بن رغبان والملقب بديك الجن.. حيث
قال:

لما نظرت إلى من حدق المها وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

ونعود إلى القصيدة الرائعة «وأمرت لأولوا» لهذا الأمير الشاعر..
فبعد أن وصفها ووقع فى هواها. حذرتة من الاقتراب منها.. لأن كل
من حاول ذلك مات كمدا.. ولكنها وبمرور الأيام عادت وسألت عنه
فأخبروها بحاله.. فتحسرت عليه وبكت وانتحبت.. وانهمرت منها
الدموع غزيرة، وعضت بأسنانها على شفيتها.. وقالت إن أحدا لن
يحزن على عزيز لديه كما حزنت عليه.. ثم يندesh الشاعر من الذين
يحسدونه على هذا الحزن من قبل المحبوبة.. وهو ميت!
ولكن الجمال كله فى وصف الشاعر للمحبوبة وهى حزينه عليه..

حيث دموعها لؤلؤ، وعينها نرجس وخطاها ورد، وشفتاها عناب،
وأسنانها برد.. ومن المعروف أن البرد هو ماء الغمام الذى يسقط كالندى
فى الصباح الباكر، والمهم أن كل هذه الصور الجميلة جاءت فى بيت
واحد فقط.. حيث يقول:

واسترجعت سألت عنى، فقيل لها
ما فيه من رمق، دقت يدا بيد
وأمرت لؤلؤا من نرجس، وسقت
وردا، وعضت على العناب بالبرد
وأنشدت بلسان الحال قائلة
من غير كره ولا مطل ولا مدد
والله ما حزنت أخت لفقـد أخ
حزنى عليه، ولا أم على ولد
إن يحسدونى على موتى، فوا أسفى
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

فهل قرأتم أجمل من ذلك.
وأعود إلى ديك الجن الذى لا أخفى إعجابى به.. حيث قال ذات
المعانى وهو يودع محبوبته:

ودعتها لفراق فاشتكت كبدى
إذا شكت يدها من لوعة يدي

فكان أول عهد العين يوم نأت
بالدمع، آخر عهد القلب بالجلد
جس الطبيب يدى جهلا فقلت له:
إن المحبة فى قلبى.. فخل يدى

نعم.. فالشكوى ليست دليل المرض.. وإنما العقل يعانى.. والجسم
يتألم!

□□□

أبو تمام.. حبيب الطائي

هو أحد أمراء الشعر في العصر العباسي، إنه حبيب بن أوس الطائي، ولد بإحدى القرى السورية وكنى بأبي تمام - أكبر أبنائه - عرف الشعر مبكراً، وانتقل بين سوريا ومصر وبغداد وخراسان وغيرها، وتولى مسئولية بريد الموصل ولكنه لم يعيش طويلاً حيث توفي دون الأربعين عاماً.

وصف بأنه كان أسمر، طويلاً فصيحاً، حلو الكلام، حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقطوعات، تميز شعره بالقوة والجزالة وبعض الألفاظ والتراكيب الغريبة وقتها.. حتى إنه سُئل مرة: لم لا تقول من الشعر ما يعرف، فأجاب سائله مستنكراً: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال، بل إنه وصف شعره باللائئ الفريدة:

مفصلة بالؤلؤ المنتقى لها من الشعر إلا أنه اللؤلؤ الرطب

وقد ترك أبو تمام ديواناً ضخماً وعدة كتب مهمة منها: تحول الشعر، وديوان الحماسة والذي جمع فيه أشعار كثير من القدماء، والمختار من شعر القبائل، ونقائض جرير والفرزدق.

وكان شاعرنا قد بدأ حياته مساعداً لوالده (الخياط) ثم انتقل إلى مصر عند أحد أقاربه وعمل ساقياً في المساجد بهدف الاختلاط بالدارسين وشيوخ العلم في مساجد القاهرة.. خاصة في اللغة والنحو والفقه والأدب وعلوم الدين بجامعة عمرو بن العاص بمنطقة الفسطاط بالقاهرة، ثم بدأ

فى قول الشعر وذاع صيته فاستدعاه الخليفة المعتصم إلى بغداد مقر الحكم العباسى.. وقربه منه وأوصى به وزراءه وقواده..

وقد تميز أبو تمام فى شعر المديح وله قصائد كثيرة فى هذا المجال.. كان أشهرها وأجملها ما قاله فى الخليفة المعتصم بعد فتحه لمدينة عمورية الرومية ، وقد خالف فيها أبو تمام ما كان سائدا فى استهلال القصائد بالغزل والوقوف على الأطلال.. حيث بدأ مباشرة بحكمة استوحاها من الحدث :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
ثم شن هجوما عنيفا على المنجمين الذين أشاروا على المعتصم بتأجيل الهجوم حتى فصل الصيف وإلا تعرض لهزيمة ساحقة ، حيث يقول فيهم :

والعلم فى شهب الأرماع لامة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهماء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ويستمر أبو تمام مشيدا بما حدث معتزا بهذا الفتح العظيم والانتصار الباهر والذى يعلو على الوصف من نثر وشعر إنما تبتهج الأرض به وتفتح له السماء أبوابها :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
ولأبى تمام قصيدة أخرى في مدح المعتصم يصور فيها جوده وكرمه
وكثرة عطاياه، يقول فيها:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليثق الله سائله

وكما مدح أبو تمام الخليفة المعتصم، مدح أيضا وزيره محمد بن عبد
الملك الزيان وكان أديبا شاعرا، ولكنه عاير أبا تمام من أنه يمدح من
يدفع له، ويبيع بضاعته لمن يشتريها، حيث قال لأبى تمام:

رأيتك سهل البيع سمحا وإنما يغالى إذا ما صن بالشىء بايعه
فأما الذى هانت بضائع بيعه فيوشك أن تبقى عليه بضايعه
فأجابه أبو تمام بأقوى مما أرسل إليه:

أبا جعفر إن كنت أصبحت تاجرا أساهل فى بيعى له من أبايعه
فقد كنت قبلى شاعرا تاجرا به تساهل من عادت عليك منافعه!

أشرنا إلى أن أبا تمام شارك فى الفتوحات وتنقل بين البلاد، وها
هو ذا يصف حاله وماذا يفعل الدهر معه، ولكن لن تقهره الأيام ولن
تضعف عزيمته:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددننى جريحا كأنى قد لقيت الكتائب

وقد يكهم السيف المسمى منية وقد يرجع المرء المظفر خائباً
وكنت امرءاً ألقى الزمان مسلماً فأليت لا ألقاه إلا محارباً
ومع ذلك.. فقد كان أبو تمام معتزاً بنفسه فخوراً بقومه وقبيلته
الشهيرة طيء والتي كان منها أيضاً تلميذه البحتري، وها هو ذا يصور
أمجادهم ومكارمهم:

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم
وسمى فيهم وهو كهل ويافع
مضوا وكان المكرمات لديهم
لكثرة ما أوصوا بهن شرائع
بها ليل لو عاينت فيض أكفهم
لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع

وكما تفوق أبو تمام في المدح والفخر، تفوق أيضاً في الرثاء وها هو
ذا يرثي أحد قادة المسلمين الذي استشهد في إحدى المعارك وقيل: إنه
غمس طرف ردائه في مداد، ثم ضرب به كتفيه وصدرة وأخذ يندبه
بقصيدته الرائية الشهيرة التي قال فيها:

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
دما، ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الطعن والضرب حينه
تقوم مقام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه
من الضرب واعتلت عليه القنا السمير

ولأبى تمام أيضا أبيات جميلة تمثل «حكماً» على مر الزمان بعضها
في مقاومة الهموم ومعاتبة السهر.. مثل قوله:

أفنى وليلى ليس يفنى آخره هذا موارده فأين مصادره!
نامت عيون الشامتين تيقنا أن ليس يهجع والهموم تسامره
وبعضها الآخر في الغزل الرفيع.. والحنين إلى الحب الأول.. مثل
قوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحييب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

رحم الله حبيب الطائي «أبو تمام» أحد أمراء الشعر ومجيديه، والذي
مات دون الأربعين.. شابا يافعا، وقد نعاه أحد الشعراء قائلا:

فجع القريض بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معا فتجاورا في حفرة وكذاك كانا قبل في الأحياء

□□□

١- أبو نواس.. الشعر والمجون!

إنه «الحسن بن هاني» الشهير بـ (أبو نواس).. الذي عاش حياته «كما شاء» أو بالطول والعرض، كما يقول المثل الشعبي ولد عام ١٤١ هجرية لأب يمني وأم فارسية في مدينة الأهواز بالعراق في فترة صعود نجم الدولة العباسية، تنقل كثيرا بين المدن العراقية البصرة، والكوفة، وبغداد، ثم مصر وبعض البلاد العربية الأخرى، تتلمذ على أشهر شعراء عصره ومنهم والبة بن الحباب الذي عوده على شرب الخمر وخلط الفنون بالمجون، ثم الشاعر «خلف الأحمر» الذي علمه أصول الشعر وكيفية إجادته وأجبره على حفظ «ألف من مآثور للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة»، ولم يسمح له بقول الشعر إلا بعد أن نسي ما حفظه من قبل!

وقد مات أبوه وهو صغير وتولت أمه رعايته وأرسلته إلى بعض مجالس درس والعلوم الدينية والأدبية في الدواوين والمساجد، ولكنها كانت امرأة لاهية لعبوب فانصرف عنها وعمل في العطارة بمدينة البصرة، ثم انتقل إلى الكوفة والتقى بأستاذه والبة بن الحباب وبعض الشعراء الآخرين مثل حمادة عجرد ومطبع بن إياس ويحيى بن زياد الذين تعلم منهم كيفية نظم الشعر، وضبط القوافي.. وكان أول ما أنشده من غزل:

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

إن يكن يحق له ليس ما به لعب

ولكن أشعاره نضجت وتنوعت بعد أن لحق بأستاذه الثانى خلف الأحمر الذى طلب منه أن يسمعه كيف يرثيه بعد موته.. فقال أبو نواس:

أودى جماع العلم مذ أودى خلف
من لا يعد العلم إلا ما عرف
فكلما نشاء منه نغترف
رواية لا تجتنى من الصحف

فيعلق الأحمر بقوله: يا بنى إن شعرك فوق سنك، ولئن عشت لتكونن رئيسا فى الشعر!

ولكن مشكلة أبى نواس أنه كان هوائيا متقلبا وكان يكره التعصب العربى، خاصة أن أمه فارسية، وقد سعد نجم الموالى من الفرس فى عهد الخلفاء العباسيين ومن ثم كان يقارن بين العرب والفرس.. ومما قاله:

تراث أنوشروان كسرى، ولم تكن
مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

بل كثيرا ما كان يهزأ بالشعراء العرب القدامى الذين كانوا يبدؤون قصائدهم بالبكاء على الأطلال:

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا

أو يقول فى مقطوعة أخرى:

عاج الشقى على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
قالوا ذكرت ديار الحى من أسد
لا در درك! قل لى من بنو أسد!
ومن تميم؟ ومن قيس ولفهما؟
ليس الأعراب عند الله من أحد.

ولم يكتف أبو نواس بمهاجمة العرب وأعرافهم وتقاليدهم بل ساير
ما انتشر فى عصره من الخوارج والتكاكين والدمريين والنصرانية
والزنادقة.. والذين تصدوا لهم من المتكلمين والمعتزلة، وقد دخل أبو
نواس تلك المعارك من الجدل الفكرى.. ومما قاله فى ذلك:

يا ناظر الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى جميع الذى يذكر إلا الموت والقبر

بل أحيانا كثيرة كان يفرط فى الشراب ويزداد مجونه ويدفعه ذلك
إلى الاستهتار وإنكار الثوابت من الدين:

وملحة باللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فأجبتها «إنى لأعرف مذهب الأبرار»
فدعى الملام فقد أظعت غوايتى وصرفت معرفتى إلى الإنكار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار!

وقد تصادف أن رأى أبو نواس جارية حسناء.. فوق القصيرة

والطويلة فوقها، دون السمين ودونها المهزول.. فوقع في حبها ولكنه كان حبا من طرف واحد.. فانتهى بالفشل وترك ذلك في حلقه غصة وفي قلبه حسرة، ولكن أطرف ما يحكى في هذا المجال أنه علم أن الجارية «جنان» سوف تذهب للحج مع مولاها فتبعها حتى وهى تطوف بالكعبة. وزاحمها وهى تلثم الحجر الأسود وألصق خده بخدها، ولم يراع حرمة المكان وجلال الموقف:

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود
فاشتقيا من غير أن يأتما كأنما كانا على موعدى
لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند
ظللنا كلانا ساترا وجهه -مما يلى جانبه- باليد
نفعل فى المسجد مالم يكن يفعلهُ الأبرار فى المسجد

وكان أبو نواس هجاءا شتاما.. تقرب من الخلفاء والأمراء واتصل بالبرامكة فى عهد هارون الرشيد فمدح من أعطاه وهجا من منعه:
وممن أحسنوا إليه.. يحيى بن خالد البرامكى الوزير الأول لهارون الرشيد، وقد قال فيه:

سألت الندى: هل أنت حُر فقال لا

ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثه

توارثنى عن والد بعد والد

هكذا بينما هاجم ابنه جعفر ابن يحيى وزير البلاط والذي كان مقربا للخليفة، فحاول تقبيح صورته وتعجب من إثارة هارون له.. فوصفه بأنه شكل الذئب وقفاه طويل:

عجبت لهارون الإمام وما الذى يود ويرجو فيك يا خلقة السلق
قفا خلف وجهه قد أطيل كأنه قفا مالك يقضى الهموم على ثبق.

□□□

٢- أبو نواس.. وتوبة متأخرة!

بعد أن انقلب هارون الرشيد على البرامكة.. وأنهى نفوذهم فى دولة الخلافة.. قتل منهم الكثير واستولى على قصورهم.. وعلق رؤوس بعضهم فى الميادين، واختار الفضل بين الربيع وزيرا أول له، حاول أبو نواس التودد للأخير إلا أن الفضل لم يكن فى كرم البرامكة ولا كثرة عطاياهم، فيسارع أبو نواس يذكر «آل الربيع» بأن الأيام دول، وأنه لو حفظ الدهر حق البرامكة فسوف يحفظ حقهم:

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع حقا ليحيى غير راع زمام آل الربيع

وعندما لاحظ أبو نواس بعد نكبة البرامكة أن هارون الرشيد أصبح صاحب الأمر والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكم الأول فى البلاد والعباد.. سارع بتحيين الفرص لمدحه.. سواء فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم، أو عندما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤمن، كل واحد بعد الآخر.. وفى تلك يقول أبو نواس:

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هارونا على الخلفاء
نزال بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إلا أنه لم ينل ما كان يتوقعه.. فعزم على الخروج إلى مصر، والتي

كانت في ذلك الوقت تنعم بوفرة الخيرات وكانت تعد أغنى ولايات
الخلافة، وكان خراجها يمثل الركن الأكبر في خزانة الدولة.
وفي تلك الأثناء اختار الرشيد ولاة جددًا غير الذين كانوا يعملون مع
البرامكة، فاختر الحسين بن جميل على ولاية مصر، وفصل تحصيل
خراجها لأمير آخر هو أبو النصر الخصيب بن عبد الحميد والذي تنسب
إليه «منية بنى خصيب» بمحافظة المنيا حاليا، وقد كان الخصيب من
محبى شعر أبى نواس، فأرسل إليه يدعوهُ للزيارة وسارع أبو نواس
بالاستجابة، فالظروف في بغداد لم تكن في صالحه، حتى إنه عاتب
جارته عندما حاولت أن تنهيه عن السفر إلى مصر:

تقول التي عن بيتها خف مركبي

عزيز علينا أن نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطلب

بلى.. إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها - واستعجلتها بوادر

جرت، فجرى في جريهن عبير

نريني - أكثر حاسديك - برحلة

إلى بلد فيها (الخصيب) أمير

والطريف أنه عندما حضر أبو نواس إلى مصر في عهد أمير خراجها

الخصيب، ومدحه بأكثر من قصيدة.. منها:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر

لا تقعد الى عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عذر
ويحق لى إن صرت بينكما أن لا يحل بساحتى فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا ونداك ينعش أهله الغمر

فبعد هذا المديح لصر وأميرها.. نجده قد هجا المصريين واتهمهم
بالبخل وسفح الدماء! وأن نيلهم ملئ بالتماسيح:

دم المكارم بالفسطاط مسفوح
والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يأهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمّة، والبخل عارضها
والنيل مع جوده فيه التماسيح

وله قصيدة أخرى فى أهل مصر. يقول فيها:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب
فان يك فيكم إفك فرعون باقيا فإن عصا موسى بكف خصيب

وبعد أن عاد إلى بغداد اضطر الخليفة هارون الرشيد أن يضع شاعرنا
أبا نواس فى السجن بعد أن زاد مكره ومجونه وانتشار أشعاره التى
يتغزل فيها فى الغلمان:

تمر فاستحييك أن أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما

بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفونى فيك قد زرفت دما
وعندما تولى الأمين الحكم بعد وفاة والده احتضن أبا نواس وجعله
شاعر البلاط وأغدق عليه الكثير من الأموال، ولكنه اضطر أيضا لحبسه
فى السجن بعد أن ساءت سمعته وجهره بشرب الخمر:

آلا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر

ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

ويقول أيضا فى الغرض نفسه :

عاذلى فى المدام غير نصيح لا تلمنى على شقيقة روحى
لا تلمنى على التى فتنتنى وأرتنى القبيح غير قبيح
قهوة تترك الصحيح سقيما وتعير السقيم ثوب الصحيح

والطريف أنه بعد أن أدرك الموت أبو نواس، وانتهى أصدقاؤه من
دفنه عادوا إلى منزله يبحثون عما ترك.. فوجدوا تحت وسادته رقعة من
القماش مكتوب فيها:

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك، ثم إنى مسلم

□□□

البحترى.. شاعر الوصف!

هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، ينتهي نسبه إلى قبيلة طيئ القحطانية (اليمنية)، وكانت أمه من قبيلة شيبان بن ربيعة (العذنانية) كنى بأبي عبادة، واشتهر بالبحترى، نسبة إلى بحتر أحد أجداده، وولد في قرية منبج التابعة لمدينة حلب السورية، والتي ولد فيها أيضا الشاعر المعروف أبو فراس الحمداني.

يقول البحترى متغزلا:

بيضاء، يعطيك القضيبي قوامها
ويريك عينيها الغزال الأحور
تمشى، فتحكم في القلوب بدلها
وتميس في ظل الشباب وتخطر

لقد قرأ البحترى كتب التاريخ والسير، فضلا عن الشعر، كما استفاد من رحلاته إلى الشرق والغرب.. حتى قال:

مالي وللأيام، صرّف صرفها حالي، وأكثر في البلاد تقلبي
أمسى زميلا للظلام، وأغتدى ردفا على كفل الصّباح الأشهب
فأكون طورا مشرقا للمشرق والأقصى، وطورا مغربا للمغرب

كما كان البحترى طموحا صاحب عزيمة، لا يرضى بالواقع إلا أنه كان مؤمنا بالقضاء والقدر.. وقد قال:

وأرى همتى تكلفنى حمل أمور خفيفهن ثقیل
ولو أنى رضیت مقسوم حظى لكفانى من الكثير القليل

وأیضا كان شجاعا مقداما، شارك فى بعض الغزوات والفتوحات
ومنها مدينة عفرقس الرومية.. وها هو ذا يفخر بذلك :

وأنا الشجاع، وقد بدا لك موقفى بعفرقس والمشرفية شهدى
ورأيتنى، فرأيت عجب منظر ربّ القصائد فى القنا المتقصد

وقد برع البحترى فى شعر الوصف، ومن منا لم يحفظ تلك الصورة
الشعرية الجميلة بقدم الربيع :

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا

من الحسن، حتى كاد أن يتكلما

ورق نسيم الريح، حتى حسبته

يحيى بأنفاس الأحبة نعمما

كما برع أيضا فى المدح الذى شكل أغلبية ديوانه، وقد كانت هذه
عادة الشعراء فى العصر العباسى.. يمدحون الخلفاء والوزراء وكبار القادة
لينالوا عطاياهم، وها هو ذا يمدح الخليفة ويصف موكبه بالتواضع، إلى
جانب محبة الناس.. بل كاد المنبر يمشى إليه :

ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى، ولا يتكبر

الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لا ينكر

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر

ومما يذكر أن البحترى كان نديما للخليفة المتوكل ومستشاره الفتح
بن خاقان، وفي إحدى الليالى دخل عليهم أنصار المنتصر ابن المتوكل
فقتلوا الخليفة ومستشاره وهرب البحترى بعد أن تلقى ضربة فى ظهره
بقيت آثارها عليه طوال حياته!

وقد قال شعرا جميلا فى المتوكل قبل وفاته، منه هذا العتاب الرقيق:

هل يجلبن إلى عطفك موقف ثبت لديك، أقول فيه وتسمع
مازال لى من حسن رأيك موئل آوى إليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق، وأقبلت نحوى ركاب الكاشحين تطلع
إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لى ذنب فعفوك واسع

ومع ذلك فقد كان دائما معتزا بنفسه، فخورا بقومه وأصوله
القحطانية:

إن قومى قوم الشريف قديما وحديئا: أبوة، وجدودا
ذهبت طيى بسابقة المجد على العالمين بأسا، وجودا
وأطرف ما يحكى عن البحترى، أنه واجه أحد الذئاب الجائعة،
ولكنه لم يصاحبه كما فعل الشاعر الفرزدق، بل واجهه وصرعه، ثم
شواه، ويقول فى ذلك:

سما لى، وبى من شدة الجوع ما به

ببيداء لم تعرف بها عيشة رغدا

عوى، ثم ألقى فارتجزت، فهجته

فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فخر، وقد أوردته منهل الردى
على ظما، لو أنه عذب الورد
وقمت، فجمعت الحمى فشويته
عليه، وللرمضاء من تحته وقد

كان البحتري شاعرا مثقفا درس الأدب القديم والمعاصر، فألف كتاب
«الحماسة» الذي جمع فيه أشعار ستمائة شاعر أكثرهم من المخضرمين
فى الجاهلية، كما وضع كتابا آخر فى «معانى الشعر» وترك ديوانا
ضحما من الشعر الجميل فى الوصف والمدح والفخر والرثاء.. واختتم
بهذين البيتين الناعمين!

أخفى هوى لك فى الضلوع، وأظهر
وآلام فى كمد عليك، وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى، وهجرت من لا يهجر!

□□□

أبو العتاهية.. الشاعر الزاهد

هذا الشاعر المعروف كان ضحية الظروف في بداية حياته، فقد ولد في أسرة فقيرة مغمورة، حيث كان والده يعمل بالحجامة في إحدى قرى مدينة الأنبار العراقية، كما أنه كان دميم الوجه قبيح المنظر- كما تصفه كتب السيرة- مما دفعه للشعور بالضياع والانخراط في جماعة المخنثين والإكثار من اللهو وشرب الخمر، إنه شاعرنا المشهور إسماعيل بن القاسم العيني والذي لقب بأبو العتاهية.. للأسباب السابقة، ولأنه تغزل في جارية من جواري زوجة الخليفة العباسي (المهدى)، فأمر بضربه، مائة جلدة وسجنه، ولكنه لم يتوقف عن ذلك واستمر في ذكرها في أشعاره، مما دفع الخليفة المهدي لوصفه بالعتة، فغلبت الصفة على اسمه!

وقد نبغ أبو العتاهية في الشعر مبكرا، وكان يعمل مع شقيقه في صناعة الفخار، وكان يأتيه الناس فينشدهم أشعاره، فيكتبونها على ما تكسر من الخزف وما يشترونه من الأواني.

تقرب من الخليفة وحصل على عطاياه وعظم شأنه لدى الوزراء وكبار رجال الدولة، وكذلك فعل مع الخليفة الهادي مع استمراره في حياة اللهو وشرب الخمر، إلى أن تولى هارون الرشيد الخلافة، فإذا به يتحول إلى حياة الزهد والتقشف، ويحاول معه الرشيد العودة إلى مديحه، كما كان يفعل.. فيمتنع.. ويضيق الرشيد بامتناعه فيأمر بضربه وحبس،

فيستعطفه أبو العتاهيه بقوله :

إنما أنت رحمة وسلامة زادك الله غبطة وكرامة
لو توجعت لى فروحت عنى روح الله عنك يوم القيامة
فيرق له الرشيد ويأمر بإطلاق سراحه .. خاصة بعد أن مدحه بقوله :

وهارون ماء المزن يشفى به الصدى
إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره
وأوسط بيت فى قريش لبيته
وأول عز فى قريش وآخره
إذا نكب الإسلام يوما بنكبة
فهارون من بين البرية ثائره

ولكن الطريف أن أبا العتاهية رغم زهده كان محبا للمال راغبا فيه
كانزا له ، وكان من قبل قد مدح الخليفة المهدي لهذا الغرض ، حيث
قال :

أته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ومن بعده مدح الخليفة هارون الرشيد فى كل المناسبات ومنها توليه
العهد لبنيه الثلاثة :

وشد عرى الإسلام منه بفتية ثلاثة أملاك ولاة عهود

هم خير أولاد، لهم خير والد له خير آباء مضت وجدود
وعندما تولى ابنه الأمين الحكم.. بادر فمدحه :

يا عمود الإسلام خير عمود والذى صيغ من حياء وجود
إن يوما أراك فيه ليوم طلعت شمسه بسعد السعود

وعندما انتصر المأمون على الأمين.. وتولى هو الخلافة.. بادر أيضا
بمدحه :

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم من الملك المأمون من أم جعفر

ولم يكن أبو العتاهية هجاء، ولكن عندما يرمى أحد خصومه بنباله،
كانت تتحول أشعاره إلى أمثال فتتردد على ألسنة الناس، ومنها- مثلا-
ما قال فى أحد معاصريه :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

وأیضا ما قاله فى كاتب الخليفة المأمون عندما حاول مقابلته ولم
يتمكن من ذلك..

متى يظفر الغادى إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم

لقد تحولت حياة أبو العتاهية.. تحولا تاما من الغزل والخمر إلى
الزهد والتقشف، وظل طويلا يندم على ما فعله.. ويستعد لما هو آت:

نعى لك ظل الشباب المشيب ونادتك باسم سواك الخطوب

فكن مستعدا لداعى المنون فكل الذى هو آت قريب
وقبلك داوى المريض الطيب فعاش المريض ومات الطيب
وكثر مواعظه ونصائحه للناس من أن هناك بعثا وحسابا.. مثل
قوله :

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كل حى
ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

كما أكثر من الأدعية وطلب المغفرة والعفو من الله على ما ارتكبه من
ذنوب..

إلهى لا تعذبنى فإنى مقر بالذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وكذلك مخاطبته للزمن الذى يفنى البشر قبل أن تتحقق أمانيتهم،
والناس لا تعلم أن كل شيء مقدر سلفا.. يتساوى فى ذلك العبد والملك:

نصبت لنا دون التفكير يا دنيا

أمانى يفنى العمر من قبل أن تفنى

لكل امرئ فيما قضى الله حظه

من الأمر فيها يستوى العبد والمولى

ونختم ببعض الأبيات الجميلة المعبرة والتي نردها جميعا بعد أن
تتغير أحوالنا وتبدل أوضاعنا.. وكما قال شاعرنا المعروف:

بكيـت على الشباب بدمع عيني فلم يغـن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شباب نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكنت غضا كما يعرى من الورق القضيـب
فيا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

□□□

صريع الغوانى.. مسلم بن الوليد

هو مسلم بن الوليد من أبناء الأنصار الذين استوطنوا بالكوفة في العراق في العصر العباسي، كان شاعرا مجيدا ومداحا محسنا، أغلب شعره في هارون الرشيد وابنه المأمون ووزيره الفضل بن سهل وقائد جيوشه يزيد بن يزيد الشيباني، وقد تولى مسئولية البريد في أصفهان، وكذلك أراضيها وحدائقها، لقب بصريع الغوانى لقوله:

وما العيش إلا أن تروح من الصبا
وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

وقيل أيضا إن رجلا سأله: لماذا تدعى صريع الغوانى، فأجابه
بالأبيات الثلاث الآتية:

إن ورد الخدود والأعين النجل
وما فى الثغور من أقحوان
واسوداد الصدغين فى أوضح الخد
وما فى الصدور من رمان
تركتنى لدى الغوانى صريعا
فلهذا أدعى «صريع الغوانى»

على أية حال.. فقد أجمعت كتب السيرة وكذلك ديوانه أنه كان مولعا بالخمير يهوى مطاردة النساء ويفتنه جمالهن، حتى إن معاصريه

اتهموه بالكذب وأنه هو الذى يروج عن نفسه تلك الصفة، فرد عليهم
قائلا:

وقائل: لست بالمحب ولو كنت محبا هزلت مذ زمن
فقلت: روحى مكاتم جسدى حبى والحب فيه مختزن

وقد يكون صحيحا أن الشعراء يقولون مالا يفعلون، ولنا أسوة فى
شاعر الغزل الأول عمرو بن أبى ربيعة، وكذلك مجنون ليلى وكثير
عزة وذى الرمة وغيرهم، ولكنهم فى النهاية أمتعونا بشعرهم.. الغزل
الجميل.. وهكذا مسلم (صريع الغواني) لقد ترك لنا فى ديوانه أشعرا
جميلة فى الغزل وفنون الشعر الأخرى، ومما قاله:

أحب التى صدت وقالت لتربها:

دعيه! الثريا منه أقرب من وصلى!

أماتت وأحييت مهجتي فهى عندها

معلقة بين المواعيد والمطل

وهو هنا يقول إن دلال المرأة يثيره جدا، خاصة عندما تراهن صديقتها
بأن نجوم السماء أقرب إليه منى! ومع ذلك فوصلها أو بعدها.. كان
يحييه ويميته.. فقد أسرت قلبه عندها!

ولكنى توقفت عند أحد أبياته فى غاية القوة.. وأراد به الفخر، إلا
أنه استخدم لفظى «النكاح» و«الطلاق» وكأنه يتحدث عن امرأة، مع أنه
يتحدث عن الحرب التى مهرها السيوف والحراب، ولا ينتهى منها إلا
بعد أن يميت كل أعدائه!.. حيث قال:

إذا ما نكحنا الحرب بالبييض والقنا
جعلنا المنيا عند ذاك طلاقها

هذا هو صريع الغواني الذى يخاطب إحدى الجاريات وهى تسقيهم
الخمير، حيث كأسها كشف عما به وأطلعته على سره:

أديرى على الراح ساقية الخمر
ولا تسألينى وأسأل الكأس عن أمرى
كأنك بى قد أظهرت مضمهر الحشا
لك الكأس، حتى أطلعته على سرى

وهو أيضا الشاعر السياسى الذى يتشيع لقومه الأنصار ويهاجم قريشا
الذى ادعت أن لها الفضل فى كل شىء! فيقول:

أخبرونا من الأعز أألمن صور حتى أعتلى أم الأنصار؟
فلنا العز قبل عز «قريش» وقريش تلك الدهور نجار

وإذا كان شاعرنا قد تفوق فى شعر الغزل والخمر، فإنه تميز أيضا فى
المدح.. فقد قال فى قائد جيوش العباسيين:

وكأن ليث الغاب فى إقدامه يوما رأك تريده فحكاكا
إن الرفاق أنتك تلتمس الغنى والبحر لو يجد السبيل أتاكا

أو كما قال.. فى أحد الولاة يمدحه لكرمه وكثرة عطياه:

فتى كرم يعطى وإن قل ماله ولا يتقى طلاله بالتعلل

يقول فيعلو قوله وهو منصف ويمنع محمودا، وإن يعطى يجزل

ولقد كان مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني هو أول من أدخل ما يسمى بالبديع في الشعر، وسار على نهجه الشعراء، ومنهم أبو تمام والبحتري وغيرهما، ولذلك عندما توفاه الله، نعاه ابنه «خارجة» وكأنه كان طبيب الشعر والشعراء.. حيث قال:

تعطلت الأشعار من بعد مسلم وصارت دعاويها إلى كل معجم
إذا مرضت أشعار قوم فإنه يجيئك منها بالصحيح المسلم
رحم الله شاعرنا.. فقد أمتعنا بشعره.. ومما قاله هذان البيتان
اللذين يمثلان حكمة بالغة:

والدهر يأخذ ما أعطى مكدر ما أصفى ومفسد ما أهوى له بيد
فلا يفرنك من دهر عطيته فليس يترك ما أعطى على أحد
ونختم بتلك الأبيات الجميلة:

أنا المقر بذنب لست صاحبه

إن كان ذنب مع الإقرار مغتفرا

أحببت من حبها من كان يشبهها

حي لقد صرت أهوى الشمس والقمر

وما ضمننت لها سرا فأكتمه

إلا حفظت عليه الدمع والبصرا

ابن المعتز.. الشاعر والخليفة!

هو الأديب والشاعر عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد.. الخليفة العباسي المشهور، ولد في بداية العصر العباسي الثاني عندما سيطر الأتراك على مقاليد الحكم بعد نكبة البرامكة، تعرض لعدة محن في شبابه، بدأت بقتل جده المتوكل، ثم أبيه المعتز بالله، ثم نفيه وجدته وأبناء عمومته من بغداد عاصمة الخلافة إلى مكة بعد أن جردوا من أموالهم.

وعندما تولى عمه المعتمد الخلافة أمر بعودته ومن معه إلى سامراء عاصمة الخلافة الجديدة، بعد أن استقرت الأوضاع على يد أخيه الموفق الذي كان من أحزم بنى العباسي وأنبغهم في إدارة شئون السياسة والحرب، وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفاريين ضد حكم أخيه المعتمد.

وطوال تلك الفترة كانت جدة شاعرنا هي المعنية بتربيته، فأحضرت له المعلمين في الفقه والحديث والأدب، وانكب عبد الله على الدروس وكان ذكيا رقيق المشاعر، فانطلق الشعر على لسانه وهو في التاسعة وهو ما لفت انتباه شاعر كبير مثل البحتري فيمدحه قائلا:

أبا العباس برزت على قومك آدابا وأخلاقا وتبريزا
فأما حلبة الشعر فتستولى على السبق بها فرضا وتمييزا

ويتقرب شاعرنا من عمه المعتمد ويروى أشعاره، كما يمدح عمه الموفق لقضائه على ثورة الزنج.. بقوله:

ولما طغى أمر الدعى رميته بعزم يرد السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقنا وكيف تروى البيض وهي محول

أى كيف تروى السيوف وهي مجدبة من دماء الأعداء، ويتوفى عمه الموفق فيخلفه ابنه المعتضد وكان مهيبا شديد البأس مثل أبيه ويسلمه عمه المعتمد مقاليد الدولة، ثم يتوفى المعتمد فيصبح المعتضد هو الخليفة ويعود إلى بغداد، ويصبح شاعرنا من ندمائه وتقبل الدنيا عليه إلى حين! وقد اشتهر ابن المعتز بأنه كان أديبا وشاعرا وناقدا، واسع الثقافة بصيرا بصنعة الألحان، كما كان راويا وإخباريا ألف العديد من الكتب منها: البديع، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء، والجوارح والصيد، ثم كتاب الجامع فى الغناء.. فضلا عن ديوان شعر فى فنون المدح والفخر والوصف والصيد والقليل من الهجاء.
ومن أشعاره الجميلة:

قالوا اعتللت، فسل عنى وعن خبرى
ألم أبت باكيا، لا أطعم الغمضا
قولوا لمكتوم: يا سمعى ويا بصرى
علمتُ جسمي من أجفانك المرضا

وكان يكثر من استخدام الصور والتشبيهات فجاء شعره بديعا رائعا مثل قوله يغازل مليحة مكتملة بالسحر فى عينها حور:

كم فيهم من مليح الوجه مكتمل
 بالسحر يطبق جفنيه على حور
 لاحظته بالهوى حتى استفاء له
 طوعا وأسلفنى الميعاد بالنظر
 وجاءنى فى قميص الليل مستتراً
 يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
 فقامت أفرش خدى فى الطريق له
 ذلا وأسحب أنيالى على الأثر
 ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
 مثل القلامه قد قدت من الظفر
 وكان ما كان مما لست أذكره
 فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وكما كان شاعرنا رقيقا بديعا فى غزله ، كان أيضا بسيطا سلسا فى
 فخره بجده العباسى وأعمامه وآبائه فى شجاعتهم وبلاغتهم:

إنا لفتاب العداة وإن نأوا	ونهبز أحشاء البلاد جميعا
ونقول فوق أسرة ومنابر	عجبا من القول المصيب بديعا
قوم إذا غضبوا على أعدائهم	جروا الحديد أزجة ودروعا
وكان أيدينا تنفر عنهم	طيرا على الأبدان كن وقوعا

وقد حزن شاعرنا كثيرا على وفاة ابن عمه وصديقه الخليفة المعتضد

ورثاه بقصيدة تشعر وأنت تقرؤها وكأن قلبه ينفطر ودموعه تنهمر، حيث يخاطبه وهو في قبره بمنطقة الطاهرية غرب بغداد بقوله :

يا ساكن القبر فى غرباء مظلمة
بالطاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التى قد كنت تسحبها
أين الكنوز التى لم تحصها عددا
أين السرير الذى قد كنت تملؤه
مهابة، من رآته عينه ارتعدا
أين الرماح التى غذيتها مهجا
مذمت ما وردت قلبا ولا كيدا

وعلى الرغم من ذلك إلا أنه وقع فى الفخ ولم يستطع مقاومة بريق السلطة، وهو الأديب الشاعر.. فجر على نفسه البلاء، فقد توفى المعتضد وكان ابنه المكتفى غائبا، فقام مؤنس رئيس الحرس بجمع وجوه العباسيين لأخذ البيعة له، ثم أفرج عنهم ومنهم ابن المعتز، ثم يتوفى المكتفى بعدها بسنوات قليلة ويخلفه ابنه المقتدر وسنه لا يتجاوز الثالثة عشرة، فاعترض عليه الناس بحجة أنه لم يبلغ الحلم فكيف يتولى الخلافة، ويقودهم محمد الكاتب الذى تمكن من خلع المقتدر وتولية ابن المعتز مكانه، فيرد الأخير الجميل له ويقلده الوزارة، ولم يستغرق الأمر سوى ليلة واحدة ونصف نهار، حيث تمكن مؤنس رئيس الحرس من تجديد البيعة للمقتدر والقبض على ابن المعتز بعد أن حاول الهرب..

وقتله والتمثيل بجثته !

قتل ابن المعتز ولم يتعظ لما حدث لجده ولأبيه.. وينعاه معاصروه من
الأدباء والشعراء.. ومنهم علي بن بسام، بقوله :

لله درك من ميّت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

مات شاعرنا بعد أن عرض نفسه إلى مالا طاقة له به، ولكنه ترك
ديوانا كبيرا من الشعر، نقتبس منه هذه الأبيات الجميلة :

أما ترى الدهر لا تفنى عجائبه .والدهر يمزج معسور بميسور
وليس لهم إلا شرب صافية كأنها دمة من عين مهجور

ونختم بتلك الحكمة البالغة : (خليك مع الله)، حيث يقول :

دع الناس، قد طال ما أتعبوك ورد إلى الله وجه الأمل
ولا تطلب الرزق من طالبيه واطلبه ممن به قد كفل

□□□

ابن الرومى.. الشاعر المتشائم

هو على بن العباس بن جريج، يونانى الأصل فارسى الأم، كان أحد كبار الشعراء فى القرن الثالث الهجرى، حيث العصر العباسى الثانى. وصف بأنه كان ضئيلا نحيفا دميم الوجه، أصلع الرأس حتى إنه اضطر ألا يخلع العمامة أبدا، فقد كان الصلع يشمل معظم رأسه وهو ما كان كثير التندر به.. وقد قال فى ذلك:

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجد الجمع

تعرض طوال حياته للكثير من الكوارث والنكبات، فجاءت أشعاره انعكاسا لما مر به، فقد ترك له والده ضياعا كثيرة باع منها الكثير بسبب إسرافه فى اللهو وشرب الخمر، واحترق البعض منها، كما أتى الجراد على زرعه، واغتصبت داره.. واختطف الموت عائلته.. أمه ثم ابنه، ثم زوجته الثانية وأولاده منها.

تلك الأحداث أصابته بالتشاؤم والتطير، وانعزل وعاش مرهوبا خائفا، وتجنبه الخلفاء والوزراء إلا قليلا منهم بسبب سرعة تقلب مزاجه وحدة طباعه.

ومع ذلك كان شاعرا مجيدا برع فى الوصف والهجاء والثناء، وكانت أشعاره مبدعة فى الحركة والتشخيص والوصف، واعتنى بالموسيقى والقافية.

ومن طرائف ما يروى عنه.. أن معاصريه عرفوا شدة تطيره، فكانوا يقتصون لأنفسهم من هجائه لهم بأن يقرعوا عليه بابه في الصباح، فيسأل من الطارق؟.. فيتلقى إجابة مثل: مُرّة بن حنظلة، أو حرب بن مقاتل، وغير ذلك من الأسماء التي تدفعه للتشاؤم، فلا يفتح بابه ولا يخرج من منزله.

وكانت بينه وبين الشاعر الكبير البحتري منافسة ممتدة وكانا يتبادلان الهجاء.. وما قاله في البحتري:

البحتري ذنوب الوجه تعرفه

وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

أنى يقول من الأقوال أثقبها

من راح يحمل وجهها سابغ الذنب

وقد حاول الاتصال بالخلفاء العباسيين والتقرب منهم ومدحهم، كما فعل مع الخليفة المعتضد، حيث هنا بزواجه من الأميرة المصرية قطر الندى بنت خماروية:

يا سيد العرب الذى زفت له

باليمن والبركات سيده العجم

أسعد بها كسعودها بك إنها

ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بماء ناظريها بهجة

وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

ولكن تشيعه وما اشتهر عنه من سوء الطبع وحدة المزاج لم يقربه
من قصر الخليفة، ولذلك لم يكن يتردد فى مهاجمة الجميع بما فيهم
الخلفاء:

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
إن أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا فى مدحهم أنبونا وهجوا شعرنا أشد الهجاء

لقد كان ابن الرومى شاعرا غريب الأطوار يمدح فيحسن مديحه،
وإذا تغيرت الظروف أو تأخرت العطايا انقلب هاجيا شديد الهجاء،
وما هو ذا يمدح آل وهب أصدقاءه القدامى حين تولوا الوزارة، وخاصة
أبو القاسم بن عبيد الله بن سليمان.. والذى كان يعطف على الشاعر قبل
تولى أبيه الوزارة.. فيقول فيه مالم يقله شاعر فى ممدوح آخر.. حيث
جمع فيه كل المحاسن فى قطعة شعرية جميلة:

إذا أبو قاسم جادت يدها لنا
لم يحمد الأجودان: البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حد عزمته
تأخر الماضيان: السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته
تضاءل النيران: الشمس والقمر

ينال بالظن ما يعيب العيان به

والشاهدان عليه: العين والأثر

ولكن الوزير عبد الله وابنه القاسم يملان من طلباته ولا يستجيبان
لإلحاحه ، فيشد عليهم قوسه ويرميهم بسهامه :

تسميتم فينا ملوكا وأنتم عبيد لما تحوى بطون الزاود
لكم نعمة أضحت بضيق صدوركم مبرأة من كل مثن وحامد
فإن هي زالت عنكم فزوالها يجدد إنعاما على كل ماجد

لقد برع شاعرنا في الهجاء وخاصة في استغلال العيوب الجسدية
فيمين يهجوهم ، فقد كان يصور العيوب الجسدية تصويرا مضحكا ، كما
يفعل رسامو الكاريكاتير ، وقد كان يسكن أمامه جار أحذب كان يتطير
منه كثيرا.. فهجاه مصورا عورته .. كمن يتقى صفة بتجميع قفاه إلى
ظهره :

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكانما صفت قفاه مرة وأحسن ثانية لها فتجمعا

هذا مع أنه يمكنه أن يقول النقيض تماما عندما يرضى عن أحد أو
يطمع في جائزته.. حيث وصف أحد معاصريه باللودعى والألمعي وهى
معان جديدة فى المديح :

لودعى له فؤاد ذكى ماله فى ذكائه من ضريب
ألمعى يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء مغيب

لقد كان ابن الرومى يعلم تماما أنه يكذب.. مثله مثل بقية الشعراء، حيث يقولون مالا يفعلون.. بل يقولون أيضا ما لا يفعل الأمراء، وقد عبّر عن ذلك.. مستوحيا ما وصف القرآن به الشعراء:

يقولون مالا يفعلون بسبب من الله مسبب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأمراء

لقد كان ابن الرومى سييء الحظ.. ضحية ظروفه ولكنه جنى على نفسه بهجائه الشديد لأصدقائه قبل أعدائه، فقد روى أن القاسم بن عبيد الله بن وهب صديقه القديم أطعمه حلوى مسمومة، فلما أكلها شعر بالمغص فقام يجرى فسأله الوزير: أين تذهب فأجابه إلى الموضع الذى أرسلتنى إليه، فقال له: سلم على والدى، فقال له: ما طريقى إلى النار!



أبو الطيب..المتنبى [١ - ٤]

أعتقد أنه لا يذكر الشعر العربى إلا ويتبادر إلى الذهن مباشرة هذا الشاعر العملاق أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى المشهور بالمتنبى، فهو شاعر من أخصم قدميه حتى شعر رأسه، ويتميز شعره بالفخر الشخصى والحكمة والمدح فى الأمراء، وقد ولد أبو الطيب فى الكوفة بالعراق وعرف من صغره برجاحة العقل وشدة الذكاء، وكان سريع التعلم ممن سبقوه، قوى الملاحظة واسع الاستيعاب، حتى إنه فى صباه لم يكن يسأل عن شئ إلا استشهد له بكلام العرب من النظم والنثر.

وقد سُمى أبو الطيب بالمتنبى لأنه ادعى النبوة فى منطقة السماوة بالكوفة، ولما ذاع أمره وفشا سره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيد، فأسره وتحفظ عليه ولم يفك اعتقاله إلا بعد أن استتاب ورجع عن ادعائه الكاذب.

ويقع ديوان المتنبى فى أكثر من ٥٧٥ صفحة من القطع الكبير، وسوف نتناوله على حلقات، كل منها تمثل مرحلة عمرية وفنية، الأولى للبدايات، والثانية عندما التحق بالأمير سيف الدولة الحمدانى.. وتفرغ له مادحا ومسجلا لانتصاراته وحياته بصفة عامة، والثالثة عندما خرج مغاضبا إلى مصر ليلحق بحاكمها كافور الأخشيدى.. والذى لم ينل منه ما كان يتوقعه، فهاجمه بهجاء لاذع، ثم وفاته مقتولا نتيجة لغروره وادعائه البطولة على غير الحقيقة!

فمشكلة المتنبى أنه كان شديد الاعتزاز بنفسه.. ومما قاله فى هذا:

أى محل ارتقى أى عظيم أتقى
 وكل ما قد خلق الله له ومالم يخلق
 محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

فهو لا يحسب حساب أحد مهما كان قدره، ولا يطمع فى الوصول
 إلى منصب، لأن كل ما خلق الله أو سيخلق ليس إلا مجرد شعرة فى
 رأسه!

ويقول أيضا فى موضوع آخر:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى
 ثم نجده فى قصيدة أخرى يقول:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
 أنا ابن الفيافى أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
 يسابق سيفى منايا العباد إليهم كأنهما فى رهان

وهناك أيضا الأبيات الشهيرة التى كانت سببا فى مقتله كما سنوضح
 فى الحلقات التالية.. حيث يقول:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم
 أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
 الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولم يكن المتنبى يكتف بالادعاء فقط.. بل كان يصل تهوره إلى درجة
 التحدى.. وها هو يقول لأحد لائمه على ادعاءاته:

أمثلى تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصا لخضب شعر مفرقه حسامى
وما بلغت مشيئتها الليالى ولا سارت وفي يدها زمامى
إذا امتلأت عيون الخيل منى فويل فى التيقظ والمنام

كان ما تقدم عن أبى الطيب الإنسان المتعالى الذى يعتد بنفسه.. أما
أبو الطيب الشاعر فحدث ولا حرج.. فما أكثر الأبيات التى لا تملك
إزاءها سوى الاندهاش على تلك القدرة والصنعة وجمال الألفاظ وجمال
المعانى، اقرأ معى تلك الأبيات:

أرق على أرق ومثلى يأرق
وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى
عين مسهدة وقلب يخفق
جربت من نار الهوى ما تنطفى
نار الغضا وتكل عما يحرق
وعزلت أهل العشق حتى ذقته
ف عجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى
عيرتهم فلقيت فيه ما لقوا

فهو يصف نفسه عندما يهوى: النوم يخاصمه وشوقه يزيد ودمعه
يسيل، وعينه لا تغمض وقلبه يخفق، ونار الهوى أشد من نار شجر

الغضا الذى يبقى جمره زمنا طويلا لا ينطفئ وقد كان يلوم أهل العشق،
والآن وبعد أن جرب فإنه يتساءل: كيف يموت من لا يجرب الحب
وينكوى بنار العشق؟!

ثم اقرأ هذه الصورة الجميلة عن كتمان الحب والذى لم يستوعبه
جسده فزاد وفاض وتسبب فى علته!

كتمت حبك حتى منك تكرمة ثم استوى فيه إسراى وإعلانى
كأنه زاد حتى فاض عن جسدى فصار سقى به فى جسم كتمانى
أو عندما قبل حبيبته.. وجد ماء رضا بها يحيى الميت.. بينما هى
تمسح دموعها على خدها الوردى بأطراف أناملها الناعمة:

قبلتها ودموعى مزج أدمعها وقبلتنى على خوف فما لفم
قد ذقت ماء حياة من مقبلها لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم
ترنو إلى بعين الظبى مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم
أما المدح فلا أعتقد أن أحداً استطاع أن يجاريه فى ذلك:

لو كنت بحرا لم يكن لك ساحل أو كنت غيثا ضاق عنك اللوح
وخشيت منك على البلاد وأهلها ما كان أنذر قوم نوح نوح
أنت كالطوفان الذى أنذر نوح به قومه، لأنك لو كنت بحرا فليس لك
ساحل، ولو كنت مطرا ما ضاق بك الجو!

وفى قصيدة أخرى يمدح بها أحد الأمراء يصف قوته بالأسد التى
فرائسها الأسود، أما الأمير فهو كاليدى والبحر والشمس:

أسد فرائسها الأسود يقودها
أسد تصير له الأسود ثعالبها
كالبدر من حيث ألتفت رأيته
يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا
كالبحر يقذف للغريب جواهرها
جودا ويبعث للبعيد سحائبها
كالشمس في كبد السماء وضوؤها
يغشى البلاد مشارقا ومغربا



٢- المتنبي.. شاعر الأمير [٢ - ٤]

جمع الحب المتبادل بين الشاعر أبو الطيب المتنبي والأمير سيف الدولة الحمداني، وعلى كثرة قراءة لسير الشعراء القدامى ودواوينهم لم أجد شاعرا يلتصق بخليفه أو أمير كما فعل المتنبي الذي تحول إلى مؤرخ لسيف الدولة يسجل حركاته وسكناته.. وانتصاراته وهزائمه طوال حروبه مع الروم، فلم تحل مناسبة أيا كانت إلا سجلها المتنبي ليس ببيت أو بيتين كما كان يفعل الشعراء فى عصره أو فيما قبله، ولكن بقصيدة طويلة تمتد أبياتها أحيانا إلى أكثر من ستين بيتا.

وليس ذلك ذما فى المتنبي.. فهو أحد أعمدة الشعر العربى كما أنه ليس عيبا فى سيف الدولة.. فقد كان هذا حال الخلفاء والأمراء وقتها، كما أنه تحمل و عائلته وحدهم عبء الدفاع عن تخوم وولايات الخلافة الإسلامية فى العصر العباسى.

ولكنى أسجل انطباعى بعد قراءة المتأنية لديوان هذا الشاعر ذى القامة العالية فى الشعر.. والتي تحولت أبياته إلى حكم وأمثال يرددها الجميع منذ أن قالها وحتى الآن!

وقد وقفت كثيرا عند أحد الأبيات الذى يصف فيها حالة جنود الروم بعد أن هزمهم جيش سيف الدولة الحمداني.. حيث يقول:

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

أما سيف الدولة نفسه.. فقد قال فيه:

حلو خلانقه شوس حقائقه
تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره
تضيق عن جيشه الدنيا ولو رحبت
كصدره لم تبين فيها عساكره

كما وصفه بأنه العين الحارسة للخلافة، وهو درة التاج وختم
الخلافة.. وهالك الأعداء.. وجامع الغنائم:

إن الخليفة لم يُسَمَّك سيفها حتى بلاك فكنت عين الصارم
فإذا تتوج كنت درة تاجه وإذا تختم كنت فص الخاتم
وإذا انتضاك على العدا فى معرك هلكوا وضاقت كفه بالقائم
أو يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظام

وعلى الرغم من عمق الصداقة بين الشاعر والأمير والتي كان يعلم بها
الجميع، فإنه كثيرا ما تعرض المتنبي للوشاية لدى الأمير.. وعندما كان
يعلم بذلك.. كان يسارع بالتوضيح!

أنطق فيك هجرا بعد علمى بأنك خير من تحت السماء
وهبنى قلت: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟

ولم يكن شاعرنا يكتفى بالرد والتوضيح واستغلال المناسبة لمدح

الأمير، ولكنه كان أيضا يلقن من تجراً عليه درسا لا ينساه!

مازلت أعرفه قردا بلا ذنب خلوا من البأس مملوءا من النزق
كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

أو يعيد الكرة مرة أخرى.. لدفع الظلم عن نفسه والإشادة بالأمير:

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهي الشهادة لى بأنى كامل
وأما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وما سواك الباطل

وبالطبع لم يكن المدح مقصورا على الأمير وحده.. بل كان يمتد
لأشقائه وشقيقاته.. وهذه بعض أبيات من قصيدة طويلة يرثى فيها
والدته بعد دفنها:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيت لاسم الشمس عيبا ولا التذكير فخر للهلال

وأحيانا كان ينتصر الروم على جيوش الأمير، فيبادر المتنبي بالتهوين
من هذا الانتصار.. وما هو ذا يخاطب قائد الروم معللا أسباب الهزيمة:

قل للدمستق إن المسلمين لكم

خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا

لا تحسبوا من أسرتكم كان ذا رفق

فليس يأكل إلا الميتة الضبع

وقد مرض سيف الدولة.. وذهب المتنبي لزيارته.. فارتجل الأبيات التالية:

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض
ومن فوقها والبأس والكرم المحض
شفاك الذى يشفى بجودك خلقه
فإنك بحر كل بحر له بعض

وفى زيارة أخرى استغرب المتنبي أن يمرض الأمير فهو الذى يداوى
العلل وهو المغيث لكل مصاب :

وكيف تعلق الدنيا بشيء وأنت لعلة الدنيا طبيب
وكيف تنوبك الشكوى بداء وأنت المستغاث لما ينوب

وبعد ما شفى الأمير واستعاد عافيته.. قال المتنبي :

المجد عوفى إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم
وما أخصك فى برء بتهنئة إذا سلمت فكل الناس قد سلموا
ولكن أطف ما قيل فى هذا المجال عندما أذن المؤذن وكان الأمير
بيده كأس من الخمر.. فوضعه جانبا احتراماً.. فارتجل المتنبي الأبيات
التالية :

ألا أذن فما ذكرت ناسي ولا لينت قلبا وهو قاس
ولا شغل الأمير عن المعالي ولا عن حق خالقه بكاس

□□□

٣- كافور.. المتنبي.. المدح والهجاء [٣ - ٤]

فى أحد المجالس التى كان يعقدها سيف الدولة كل ليلة ويحضرها جمع غفير من العلماء والشعراء، تصادف أن وقع خلاف بين المتنبى وابن خلويه، قام على أثره الأخير بالوثب على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان بيده فشجه، ولم يتدخل سيف الدولة للدفاع عن صديقه الشاعر أو يطيب خاطره، فخرج المتنبى غاضبا من المجلس واتجه إلى دمشق وأقام فيها حتى وصلتته دعوة من حاكم مصر وقتها كافور الإخشيدي فلباها وذهب إلى مصر ومدح كافور بعدة قصائد بعد أن منحه دارا وخلع عليه ملابس وحمل إليه آلاف من الدراهم.

وقد عرض فى أول قصائده فى مدح كافور بصديقه القديم سيف الدولة ووصفه بالغدار.. رغم عمق محبته له، حيث بدأ قصيدته بقوله:

حبيبك قلبى قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكُن أنت وافيًا
فإن دموع العين غدر بربها إذا كن إثر الغادرين جواريا
ولكن بالفسطاط بحرا أزرته حياتى ونصحى والهوى والقوافيا

ثم يصفه بأبى المسك الذى كان ينتظر اليوم الذى يلقاه فيه، ولقبه بالأستاذ الكريم الشجاع ولماذا لا تبدل الملوك بياض وجهها بلون كافور الأسود:

كرم فى شجاعة وذكاء فى بهاء وقدرة فى وفاء

من لبيض الملوك أن تبدل اللون بلون الأستاذ والسحناء
وزاد فى مدحه ووصفه بأبى كل طيب وليس المسك وحده، وأنه
شمس منيرة سوداء، وأنه الأكثر تجربة بين الملوك.. ووصل إلى ما وصل
إليه وهمته لم تكل، وهو يدير الملك من مصر إلى عدن إلى العراق إلى الروم
والنوبة!

ثم يقول فى قصيدة أخرى:

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت
وكان قليلا من يقول لها اقدمى
شديد ثبات الطرف والنقع واصل
إلى لهوات الفارس المتلثم
فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها
بقلب المشوق المستهام المقيم
رضيت بما ترضى به لى محبة
وقدت إليك النفس قود المسلم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده
فكلمه عنى ولم أتكلم

ولم يكتف بذلك.. ولكنه دخل فى الموضوع مباشرة.. حيث خاطبه:

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأى فى هواك صواب
 إذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذى فوق التراب تراب
 ولكن مشكلة المتنبي أنه قارن كافور بصديقه سيف الدولة، وشتان
 بين الاثنين، فلما لم يمنحه كافور ما كان يتوقعه منه.. غادر مصر وهجاه
 بعدة قصائد مشهورة أصبحت مضرب الأمثال منها تلك الأبيات التى
 يعايرها فيها بشقوق فى كعب رجله، وكذلك شفتيه التى شبهها بشفتى
 البعير:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا
 وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
 وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى
 رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
 ويذكرنى تخييط كعبك شقه
 ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
 فإن كنت لا خير أفدت فإننى
 أفدت بلحظى مشرفيك الملاحيا
 ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
 ليضحك ربات الحداد البواكيا

فهو ليس راضيا عنه لتقصيره معه، ولا عن نفسه لقصدها إياه، فهو
 العبد الذى يؤتى به من بلاد بعيدة لتضحك عليه الثكالى، فقد قيل إن
 كافور كان عبدا لحجام بمصر فلما باعه اشتراه الإخشيد.

يقول أبو الطيب فيه هاجيا:

صار الخصى إمام الأبقين بها
العبد ليس لحر صالح بأخ
لا تشتتر العبد إلا والعصا معه
نامت نواطير مصر عن ثعالبيها
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
يسىء بى فيه عبد وهو محمود
فالحر مستعبد والعبد معبود
لو أنه فى ثياب الحر مولود
إن العبيد لأنجاس مناكيد
فقد بشمن وما تفنى العناقيد

ولم يقتصر هجاء المتنبي لكافور حاكم مصر وحده، وإنما طال المصريين جميعا.. بل طال مصر نفسها.. ويصف ذلك بأنه عقاب من الله أن يولى عليهم كلبا مثله.. عبد قزم، وأن المصريين لا يعلمون من الدين إلا حلق الشارب.. وهو ما أضحك الأمم منهم:

جاز الأولى ملكت كفاك قدرهم
سادات كل أناس من نفوسه
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
ثم يختم هجومه هاجيا الجميع:

وماذا بمصر من المضحكات
بها نبطى من أهل السواد
وأسود مشفره نصفه
فما كان ذلك مدحاله
ومن جهلت نفسه قدره
ولكنه ضحكك كالبكا
يدرس أنساب أهل الفلا
يقال له أنت بدر الدجى
ولكنه كان هجو الورى
رأى غيره منه مالا يرى

جزاك الله يا أبا الطيب لم تقدر حسن الاستقبال وكرم الضيافة..
وسببت مصر والمصريين.

.□□□

٤- شاعر الحكمة.. الذى قتل نفسه! [٤ - ٤]

كان أبو الطيب المتنبي يتميز بالعقل الراجح والذكاء الشديد، ولكنه كان مغرورا شديداً الاعتزاز بنفسه، وهو ما عرضه للهلاك مرتين، وقد خابت الأولى.. بينما صابت الثانية، ويبدو أنه اعتقد أن ما يأتيه من الشعر.. كأنه وحى.. فأشدد يقول:

أنا رب الندى ورب القوافى وسام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

ثم ادعى النبوة.. وقبض عليه.. ولكنه استتاب وأخلى سبيله، ولكن ليست كل مرة تسلم الجرة، فبعد مغادرته مصر ذهب إلى بغداد ثم إلى بلاد فارس، وفى تلك الفترة قال قصيدة هجاء فى شخص يدعى ضبة بن يزيد العيني، وكانت والدته شقيقة لشخص متهور يدعى فاتك ابن أبى جهل الأسدى.. والذى علم بما قاله المتنبي فى ابن شقيقته فترى به ينوى قتله، وأثناء عودة المتنبي من بلاد فارس إلى بغداد اتصل بصديق له يدعى أبى نصر الحلبي فأطلعته على ما ينويه فاتك ضده، ونصحه بأن يصحب معه من يحمونه طوال الطريق، ولكن المتنبي عاند وتكبر ورفض ذلك قائلاً:

أنا والجرار فى عنقى، فما بى حاجة إلى مؤنس، ثم أضاف: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأننى سرت فى خفارة غير سيفى، وظل

صديقه يحذره.. وهو يعقب: أبنجو الطير تخوفنى.. ومن عبيد العصي
تخاف علىّ؟ معاذ الله أن أشغل فكرى بما ذكرت اسمه لحظة واحدة،
فقال له أبو النصر: قل إن شاء الله، فرد المتنبى: هى كلمة مقولة لا
تدفع مقضيا ولا تستجلب آتيا!

ثم ركب وسار فى طريقه ولقيه فاتك فاقتتلوا، وحاول المتنبى الهرب،
فنادى عليه غلامه: أتهرب وتتركنا وأنت القائل:

الخيال والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

«فعاد المتنبى للقتال.. حتى قتل مع ولده محسد وغلامه مفلح فى ٢٨
رمضان عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥م).

تلك قصة المتنبى الذى عرف بأنه أشعر شعراء العرب.. فقد نظم
الشعر على جميع الحروف الهجائية، وتحولت أبياته إلى مآثورات..
وأمثال وحكم يرددها كل من يعرف العربية.. بل لا يخلو مقال لكاتب
أو قصة لأديب من الاستعانة بإحدى مقولات المتنبى.
فمن منا لا يردد عن العقل والجهل والشرف:

نو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى تراق على جوانبه الدم

واقراً الحكمة الصادقة المعبرة.. فى قوله:

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له
إذا لم يكن فى فعله والخلائق
وما بلد الإنسان غير المواقف
ولا أهله الأوفون غير الأصادق

أو عندما وصف عذاب الجسد بسبب فكر العقل :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
وكذا تطلع البدور علينا وكذا تفلق البحور العظام
وعندما عبر عن معنى الآية الكريمة «وتلك الأيام نداؤها بين الناس»..
وأىضا الفرق بين الحب مع العقل.. والحب مع الجهل.. حين قال :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
وإن قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد

وأىضا عن ثواب المعروف ومع من يكون؟ ولماذا؟

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ويحكى أنه طلب منه أن يقول بيتا من الشعر يتضمن ما يمكن من
الحروف الهجائية.. فقال :

عش أبق اسم سد جد قد مر أنه أسرفه تسل
غظ أرم صب أحم أغز أسب رع زع دل أثن نل

ثم قال لمحدثه :

هذا دعاء لو سكت كفيته لأنى سألت الله فيك وقد فعل

وكان المتنبى يقصد العيش والبقاء والسمو والسيادة وقيادة الجيوش،
والجود، الأمر والنهى، والوفاء، وعش مسرورا، وفى مروءة، وسخاء،
وقل ما ترغب، وغظ حسادك، وارم بكأسك من يكيذك، وأصب الهدف،
واغز أعدائك، واسب أولادهم، وتحمل دية تباعك، واصرف أعدائك عن
مرادهم، واثنهم عما يرغبون ونل منهم.

هكذا كان لشاعرنا التقدير.. قدرة شعرية.. وحكمة بالغة ومعان
عميقة.. وهو ما وصف نفسه به حيث قال :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتا ولكن الهزبر الباسل

أو كما قال.. واصفا نفسه أنه الأشعر على الإطلاق :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسيّر مشمرا

وغنى به من لا يغنى مغردا

رحم الله المتنبى.. وأمتعنا الله بأشعاره.

أبو فراس الحمدانى.. الطموح القاتل

هذا الشاعر لم أستطع مقاومة الكتابة عنه، بعد أن قرأت سيرته وديوانه، إنه الأمير العربى الأصيل سليل قبيلة تغلب.. المعروفة بشهرة فرسانها وشعرائها ومنهم عمرو بن كلثوم الذى قتل الملك عمرو بن هند فى مقر حكمه!

هو أبو فراس بن أبى العلاء سعيد بن حمدان أمير الموصل وأمه كانت رومية حسناء أسرها أبوه فى إحدى غزواته ضد الروم، وقد قتل أبوه وعمره ثلاث سنوات فقط وتكفل عمه الأمير سيف الدولة الحمدانى أمير حلب برعايته وتدريبه حتى عينه أميراً وعمره ١٦ سنة على مقاطعتى «منبج وحران» وتوابعهما كما تولى أستاذه ابن خالويه تعليمه وثقيفه وتحفيظه الشعر القديم كما تكفل بكتابة قصة حياته وحفظ أشعاره بعد مماته.

وقد كان شاعرنا أبو فراس «خليطاً» من الفارس الشجاع المقدم الذى لا يهاب الموت، كما كان عزيز النفس يعتز بكرامته جداً، فضلاً عن كونه شاعراً محباً رقيقاً حين يتغزل فى محبوبته، فخوراً حين يتذكر أمجاد قومه وحرورهم ضد الأعداء من الروم، حزينا مؤثراً عندما يعبر عن سنوات الأسر التى طالت ونسيان أهله له وعدم فديته غصبا أو عمداً.

ومن منا لم يردد مع سيدة الغناء العربى أم كلثوم «أراك عصى الدمع» والتي تكشف عن مدى حب الشاعر ووجدته بمحبوبته ولكنه أيضاً «لا

يذاع له سر» فهو الأبى الشامخ عزيز النفس المحافظ على كرامته..
المعروف لدى البدو والحضر والأصدقاء والأعداء.. فكيف تنكره تلك
الفاتنة التي أحبها.. وهي عليمة من هو الأمير العاشق!
يقول أبو فراس:

أراك عصى الدمع شيمتك الصب
أما للهوى نهى عليك ولا أمرُ
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
ولكن مثلى لا يذاع له سر
وفيت وفى بعض الوفاء مذلة
لفاتنة فى الحى شيمتها الغدرُ
تسألنى: «من أنت؟» وهى عليمة
وهل بفتى مثلى على حاله نُكرُ؟
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك! .. قالت: أيهم؟ فهم كثرُ
وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر
وأيقنت أن لا عز بعدى لعاشق
وأن يدى مما علقته به صفر
فعدت إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولى العذر

هذا هو الشاعر العاشق، أما الفارس الشجاع المقدم فاقراً قوله :

وإنى لجّار لكل كتيبة
معودة أن لا يخل بها النصر
وإنى لنزال بكل مخوفة
كثير إلى نزالها النظر الشزر
فأظماً حتى ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

وعندما أدارت الدنيا له ظهرها وتجمع من حوله الأعداء وأوشك على الوقوع في الأسر، نصحه أصحابه بالهرب، فرفض معلناً أنه لن يفعل ما يشينه كما فعل عمر بن أبي ربيعة عندما تخفى في زى النساء هرباً من قوم كانوا يتربصون به :

وقال أصحابي الفرار أو الردى؟
فقلت: هما أمران أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعيبنى
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الإنسان ما حيى الذكر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة
كما ردها يوماً بسوءته عمر

واقراً مواساته لنفسه ولحمامة وقفت بشباك أسره.. ما هذا الجمال؟
وما كل هذا الشعور بالكرامة وعزة النفس.. إنها أبيات قليلة.. ولكنها
نالت شهرة كبيرة بعد أن غناها مطرب العراق الأشهر المرحوم ناظم
الغزالي:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارة هل تشعرين بحالى؟
أيا جارة ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى نرى روحا لدى ضعيفة تردد فى جسم يعذب بالى
أضحك مأسور وتبكى طليقة ويسكت محزون، ويندب سالى؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعى فى الحوادث غالى

ولقد كانت مشكلة شاعرنا الفارس العاشق هو الطموح المتعجل..
حيث كان يشعر أنه لم يحصل على ما يستحقه بعد كل ما بذله من دفاع
عن قومه وبلاده ضد الأعداء.. وهو ما أفصح عنه صراحة عندما قال:

يصان مهري لأمر لا أبوح به والدرع والرمح والصمصامة الخزم
كما قال أيضا:

تطالبنى بيض الصوارم والقنا بما وعدت جدى فى المخايل
ولكن دهرا دافعتنى صروفه كما دافع الدين الغريم المماطل

وكان أبو فراس قد أخذ أسيراً لدى الروم وبقي فى الأسر سبع
سنين.. كتب فيها أجمل اشعاره التى عرفت بالروميات.. وكان يلح فى
أشعاره على ابن عمه سيف الدولة أن يفاديه.. لكنه لم يفعل إلا بعد

هذه السنوات الطويلة التي قضاها فى سجن خرشنة بالقسطنطينية ، وعن حاله فى السجن يقول أبو فراس :

إن زرت خرشنة أسيراً
ولقد رأيت النار تنتهب
ولقد رأيت السبى يجلب
تختار منها الغادة الحسنة

فلكم أحطت بها مغيراً
المنازل والقصورا
نحونا حرا وحرورا
والظبى الغريرا

ويجد الروم فى أبى فراس صيدا ثميناً فيساومون به سيف الدولة ويرسل أبو فراس بقصائده إلى عمه ومنها قوله :

دعوتك للجنف القريح المسهد
وما ذاك بخلا بالحياة وإنما
وما الأسر مما ضقت ذراعا بحمله
دعوتك والأبواب ترتج بيننا
فمثلك من يدعى لكل عزيمة
أناديك لا أنى أخاف من الردى
فلا تترك الأعداء حولي ليفرحوا

لدى وللنوم القليل المشرد
لأول مبدول لأول مجتد
وما الخطب مما أن أقوله له قدى
فكن خير مدعو وأكرم منجد
ومثلى من يفدى بكل مسود
ولا أرتجى تأخير يومى إلى غدى
ولا تقطع التسأل عنى وتعد

وهى قصيدة طويلة يفتخر فيها بنفسه ويلح على ابن عمه بمفاداته لكن سيف الدولة لم يعر له أذنا إلا بعد سنين طويلة.. خرج بعدها أبو فراس منها من سجنه.

فلولا وفاؤه لابن عمه الذى رباه وأحسن وفادته لاستولى على الحكم،

وهو ما حاوله فعلا بعد وفاة سيف الدولة ، حيث دخل في معارك عديدة مع ابنه.. ولكنه هزم وتوفى متأثرا بجروحه.. ولعل هذا الطموح الذي استشعره سيف الدولة تسبب في تركه في الأسر لدى الروم لأكثر من سبع سنوات!

لقد توفى أبو فراس بين يدي ابنته وهو يوصيها أن تحزن عليه وتنعيه وتذكره:

أبنيتهى لا تجزعى كل الأنام إلى نهاب
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا ناديتنى وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب!



الحلاج.. الشاعر والمتصوف الزنديق!

هذا الرجل حير الجميع وكتبت فيه وعنه العديد من الأبحاث ورسائل الدكتوراه، كما كتب عنه الكثير من الشعراء المعاصرين منهم عبد الوهاب البياتي وأدونيس ونجيب سرور وصلاح عبد الصبور الذي ألف فيه مسرحية شهيرة باسم «مأساة الحلاج»، إنه الحسين ابن منصور الشهير بالحلاج نظرا لصنعة والده الذي كان يحلج القطن وينسجه، ولد في خراسان وتعلمذ على يد العديد من المتصوفة مثل سهل بن الله التستري والجنيد وغيرهم.. عاش في بغداد ومنها سافر إلى بلاد فارس والهند وخراسان.. ووصف بأنه أحد رواد مذهب الزرادشتية والتي تقوم على مذهب التأثير الروحي في الدين والفلسفة، وكان يؤمن بتوحد الخالق في مخلوقاته، وكان يرى أن الأهم جوهر الإنسان لا سلوكه، والتصوف عنده لم يكن مسلكا فرديا وإنما جهاد في سبيل إحقاق الحق. وقد عاش الحلاج في عصر الخليفة العباسي أبو الفضل جعفر الملقب بالمقتدر بالله، الذي اتهمه بالزندقة وموالاته القرامطة وطلب من وزيره محاكمته.. فحكم عليه بالسجن لمدة ثمانى سنوات، ثم قضى بجلده ألف جلدة وتقطيع يديه ورجليه وقطع رأسه وحرق جسده وإلقاء رماها في نهر الفرات.

المهم أن أهل السنة اتهموه بالكفر والزندقة، ولكن مازال لديه أتباع كثر في الهند وخراسان وبعض البلاد الإسلامية الأخرى يؤمنون بأفكاره ويحتفلون بذكراه، فقد كان للرجل قدرة على الخداع البصرى (السحر)

الذى تعلم فنونه فى الهند، حيث كان يمد يده فى الهواء ثم يستردها وقد امتلأت بالدراهم، وكان يسميها (دراهم القدرة) كما روى أنه كان يأتى بالفاكهة فى غير أوانها ويقراً ما فى نفوس الناس.

ولكن مشكلته التى عجلت بنهايته وكانت سببا رئيسيا فى الحكم عليه بالقتل والصلب أنه أنكر ركنا أساسيا من أركان الدين، حيث دعى إلى إسقاط فريضة الحج والاستعاضة عنها بالدوران - وقت الحج - حول حجرة طاهرة فى البيت، والقيام ببعض أعمال الخير مثل إطعام الفقراء وتوزيع الأموال عليهم.

هذا عن حياته.. أما أشعاره فمن يقرأ ديوانه أو بعض المقطوعات الشعرية، فحدث ولا حرج عن ألغازه وزندقته وهلاوسه.. ومنها:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحانى!
وتوحيدك توحيدى وعصيانك عصيانى
ولم أجلد يارب إذا قيل هو الزانى؟

فهو لا يعتقد بمعاقة المخطئ، لأنه - واستغفر الله - كان يعتقد أنه والله شىء واحد.. طبقا لما يسمى بعقيدة الحلول..

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شىء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال

هكذا وكأنه يشاهد الله فى ذاته.. ومرة أخرى يقول:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

والغريب أنه كان أحيانا ما يجمع ويخالف ما يقوله مثل:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه فى كل حال أيها الرائي؟

ألقاه فى اليم مكتوفا، وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء!

فهو هنا يعتقد بالجبر أن الإنسان مسير وليس مخيرا.

ويقول العديد من المفسرين والنقاد إن كثرة مجاهدة الحلاج لنفسه وأخذها بالشدة وسفره المتعدد ودراسته للكثير من المذاهب والفلسفات السائدة فى عصره.. جعلته يخرج عن المألوف ويخالف أساتذته الذين علموه التصوف، والذين ناقشوه فيما يقول وحاولوا نصحه وإرشاده دون جدوى.. حيث يرى د. شوقى ضيف أن دراسته للمسيحية ومعرفته بنظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح، جعله يعتقد باتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنسان.. وهو ما قاله فى كتابه «الطواسين» حيث يقول:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا لخلقه ظاهرا فى صورة الأكل الشارب

حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب!

والغريب أنه أحيانا ما يكتب شعرا، وكأنه أفاق من سكرته، شعرا

كله خشوع، وطاعة واستعطاف وندم وزهد مثل ما قال:

دنيا تخادعنى كأ
 نى لست أعرف حالها
 حظر الإله حرامها
 وأنا اجتنبت حلالها
 مدت إلى يمينها
 فرددتها وشمالها
 ورأيتهما محتاجة
 فوهبت جملتها لها
 ومتى عرفت وصالها
 حتى أخاف ملالها؟

بل صرح فى أبيات أخرى باسم «الله» سبحانه وهيام قلبه وانصراف
 همومه وراحة فكره بذكر الحروف التى يتكون منها اسم الخالق «الله»:

أحرف أربع بها هام قلبى وتلاشت بها همومى وفكرى
 ألف تألف الخلائق بالصفح ولام على الملامة تجرى
 ثم لام زيادة فى المعانى ثم هاء بها أهيم وأدرى

ومع ذلك تجده فى موضع آخر ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة
 ويسقط ركنا من أركان الإسلام وهو فريضة الحج:

يا لائمى فى هواه كم تلوم فلو
 عرفت منه الذى عنيت لم تلم
 للناس حج ولى حج إلى سكنى
 تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى
 تطوف بالبيت قوم لا بجارحة
 بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

ونختم بأجمل ما قاله الحلاج شعرا.. حيث حب الله لا يفارقه وذكره

لا يغيب، ومع ذلك فهو يستنكر ما يقوله الناس عنه.. من سفه وزندقة..
فمال الناس وماله.. لهم دينهم وله دينه!

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا همست بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالا منك في الكاسي

ولو قدرت على الإتيان جئتكم

سعيًا على الوجه أومشياً على الرأس

مالي وللناس كم يلحونني سفها

ديني لنفسي ودين الناس للناس

رحم الله أبو المغيث الحسين بن منصور (الحلاج) وغفر الله له!

□□□

عمر الخيام.. عاشق النجوم

غدٍ بظهر الغيب واليوم لى وكم يخيب الظن فى المقبل
ولست بالغافل حتى أرى جمال دنيايا ولا أجتلى
أفق خفيف الظل هذا السحر وهاتها صرفا وناغ الوتر
فما أطال النوم عمرا ولا قصر فى الأعمار طول السهر

صاحب هذه الأبيات.. والتي ترجمها أحمد رامى وتغننت بها كوكب الشرق أم كلثوم هو غياث الدين عمر أبو الفتح بن إبراهيم.. الشهير بعمر الخيام كان مجموعة من الأشخاص.. فى شخص واحد.. فقد كان عالما بالتاريخ بارعا فى الطب خبيرا بالإلهيات.. عاشقا للنجوم دارسا للفلك.. له العديد من الكتب فى الفقه والوجود والكون وصاحب أول تقويم لعيد النيروز الذى يعمل به فى فارس حتى الآن. ذاق الفقر.. ونعم بالثراء.. وظل فترة طويلة منسيا لا يذكره أحد.. إلى أن اكتشفت أشعاره والتي سميت «بالرباعيات» فأعطته شهرة فاقت ما قبله وظلمت ما بعده. ولقد أجمع كل من كتب عنه أنه كان نابغا منذ صغره.. مقبلا على التعلم بكل حماسة.. متنقلا بين البلاد للبحث عن كل جديد فى كافة المجالات.. ولذلك جمع بين الشئ وضده.. فقد حج البيت الحرام.. وكان متصوفا فى بعض حالاته، ولكنه كان محبا للخمر.. متشككا فى جدوى الحياة عائبا على قصرها وكان دائما ما يقول.. فى نثره وشعره: ما لنا نعيب القضاء وهو مسير بإرادة عالية، ولم خلقت وكيف

لا أستطيع الرحيل متى أردت وكيف نعاقب وقد كتب علينا فى لوح الغيب ما نقترب؟ ثم يعود لرشده ويطلب الرحمة والمغفرة للمذنبين طمعا فى كرم الله ولطفه، وسرعان ما يعود إلى تجرع الخمر فترجع إليه نفسه المتشائمة ويتساءل.. ما دامت الحياة بهذا القصر فعلام الألم ومثوانا القربان ومجلسنا على العشب الذى غذته أوصال الغابرين؟ وأكوابنا من الطين الذى اختلطت فيه رءوس الملوك بأقدام السوقة، ثم ينعى على الموت ويؤله أنه لم يعد أحد ممن ذهبوا فيخبر عن حال الراحلين! .. نعم لقد كان عمر الخيام مجموعة من التناقضات الغربية.. عالماً.. ومفكراً.. وفليسوفاً.. ومتصوفاً.. وخبيراً فى علم الفلك ودوران النجوم.. ثم شاعرا طافت شهرته الزمان وتعنى بها أشهر المطربين فى كل مكان. ويقول عنه شاعرنا الراحل أحمد رامى والسدى ترجم رباعياته من الفارسية إلى العربية.. لقد حار الأدباء فى فهم الخيام، فمنهم من عده مستهترا لا يعتقد بالبعث ومنهم من أنزله منزلة الصالحين راسخ اليقين، على أن الخيام كان جبريا يعتقد أن الإنسان تسيره قوة خافية لا يملك دفعها ولا تدع فرصة الاختيار بين النافع والضار ولذلك جاءت الرباعيات معيرة عن كل ذلك؛ فالخيام فيها تارة متفائلا وأخرى متشائماً؛ ثم قدرياً ثم متصوفاً وأحياناً يميل إلى اليأس إلى حد السخرية من الحياة ومن كل شىء فى الوجود.

لبست ثوب العيش لم استشر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم
أدرك لماذا جنئت أين المفر
وصنعتنى ما شئت غرا وهين
وحررت فيه بين شتى الفكر

فما احتياالى والذى قد جرى كتبتنه يارب.. فوق الجبين؟

ثم نجده متصوفا قدريا.. مناشدا الله العفو والمغفرة:

يا من يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك

أسكرنى الأثم ولكننى صحت بالآمال فى رحمتك

يا عالم الأسرار علم اليقين وكاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار عدنا إلى ذلك.. فاقبل توبة التائبين

رحم الله شاعرنا الكبير عمر الخيام الذى كان آخر ما نطق به قبل

أن يسلم الروح إلى خالقها:

«اللهم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفر لى؛ فإن معرفتى إياك

وسيلتى إليك»



الجزء الثاني

مع العشاق

نبدأ الكتابة عن الغزل العفيف والعشق الجارف في الشعر العربي القديم بعد أن انتهينا من بعض الشعراء العرب الكبار الذين أثروا تاريخ الشعر العربي بعطائهم الخالد.

ولست أدري السر في تعلق القراء بمثل هذه النوعية من الكتابة؟.. هل هي ضغوط الحياة التي يبحث كل منا بسببها عن دواء للقلوب وشفاء للنفوس؟.. وهل فعلا «المغنى» حياة الروح؟.. أم أن الكثيرين من القراء مصابون «بوعكة عاطفية» ويجدون العلاج في هذا الشعر العربي الجميل؟.. لست أدري.. ولست «حكيم روحاني» كما قالت راقية إبراهيم لمحمد عبد الوهاب.. في رصاصة في القلب.

لكن تلقيت اتصالات عديدة ورسائل على البريد الإلكتروني.. مضمونها: (عد.. فالعود أحمد).

وها أنا أكتب عن أشهر العشاق في الشعر العربي مثل «قيس وليلى» و«جميل وبثينة» و«كثير وعزة» و«عروة وعفراء».. وغيرهم وهم أكثر! مستعينا في ذلك بالكثير مما سطره الرواد في ذلك المجال ومنهم الأساتذة فتحي سعيد في كتابه الجميل (عشاق.. لكن شعراء).. ود. شوقي ضيف، وكتابه «الحب العذري عند العرب».. (وأحلى عشرين قصيدة حب) للشاعر الكبير فاروق شوشة وكتاب (مجانين العشق العربي) للشاعر الكبير أحمد سويلم بخلاف دواوين الشعراء

الكبار كالتبني وأبى تمام، وجريز وديك الجن.. وغيرها من الذخائر التي احتوت هذا «الكنز» العربي وعلى رأسها الكتاب العمدة في هذا المجال.. وهو كتاب «الأغاني» للأصفهاني.

ولقد أجمع كل من كتب في هذا الموضوع أن الحب طبيعة في المخلوقات.. وهبها الله - سبحانه - وتعالى للجميع.. حتى تستمر الحياة على الأرض حتى إن أحد الشعراء قال:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنفصم العهد

ووصف أحدهم الحب بأربعة أنواع: حب استلطاف أشبه ما يكون بالألفة والصدقة.. وحب مغرور، يرضى به المحب غروره، وكبرياءه، وحب جسدى ينبع من الغرائز الجنسية، وحب عاطفى عنيف، وهو حب العشاق المتيمين المشهورين فى التاريخ، وحدد آخر الحب بسبع مراتب، أولها: مرتبة الإعجاب المتصل بالمحبوب:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وثانيها: مرتبة الشوق إليه، وثالثها: مرتبة الأمل، أما الرابعة: فهى المرتبة التى ينشأ فيها الحب، حين تأخذ العاطفة فى النمو، فيصعد بالمحب إلى المرتبة الخامسة، وهى المرتبة التى يصبح فيها محبوبه مثله الأعلى فى الجمال والسعادة به، وقد عبرت عن ذلك عزة صاحبة كثير حين فاجأها الحجاج - حاكم العراق أيام (الأمويين) - «والله ما أنت كما قال فيك كثير»؟

فردت عليه : إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها.
وقد قال فى ذلك بعض المحبين :

وانه ما أدرى أزيدت ملاحظة

وحسنا على النساء أم ليس لى عقل؟

ثم ينتقل المحب إلى المرتبة السادسة : هى التى يصطلى فيها نيران
القلق والخوف والشك وتظهر عليه عوارض الحب والتى وصفها أحدهم :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

ثم يصل المحب إلى المرتبة السابعة : والتى لا يستطيع فيها فكاكا؛
حيث يجمع الحب بصاحبه جموحا لا يعرف فيه قصدا ولا اعتدالا :

هو الحب فاسلم بالحثا ما الهوى سهل

فما اختاره مضى به وله عقل

وعش خاليا فالحب أوله عناء

وأوسطه سقم وآخره قتل

أو كما قال عنه قيس بن الملوح :

لقد ثبتت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

بل إنه وصل به الحال إلى القول :

أرانى إذا صليت يمرت نحوها

بوجهى وإن كان المصلى وراثيا

وما بى إشراك ولكن حبها
وعظم الجوى، أعيا الطبيب مداويا
لقد حاولت الإجابة عن: مين السبب فى الحب..
القلب ولا العين؟
مستشهدا بجواهر الشعر العربى:

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحييننا قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا
وكذلك قول القائل:

لو كان قلبى معى ما اخترت غيركم
ولا رضيت سواكم فى الهوى بدلا
لكنه راغب فىمن يعذبه
وليس يقبل لا لوما ولا عتبا

وتأثرت كثيرا بشعر شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية، وكذلك
الشاعر عبدالسلام بن رغبان والملقب بعطيل العرب الذى قال:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا
واستمتعت بالقصائد المغناة بصوت «صداح الشرق» المطرب العربى

المعروف صباح فخري.. وهو يقول:

جاءت معذبتى فى غيهب الغسق
كأنها الكوكب الدرى فى الأفق
فقلت: نورتنى يا خير زائرة
أما خشيت من الحراس فى الطرق..
فجاوبتنى ودمع العين يسبقها..
من يركب البحر لا يخشى من الغرق
قبلتها.. قبلتنى وهى قائلة
قبلت خدى فلا تبخل على عنقى

□□□

عنتره وعبله.. العشق والشعر

لم يولد عنتره شاعرا كغيره من شعراء القبائل فى الجاهلية، ولكن شاعريته تفجرت متأخرة بعد أن ثبتت فروسيته، وتمكن حب عبله من قلبه، وبعد أن عايره نفر من قومه بأنه لا يقول الشعر.. فتحداه وتحدى كل ظروفه.. ونطق بالشعر مفاخرا بفروسيته معلنا عن حبه.. معبرا عن أحواله.. مسجلا لسيرة حياته.

وعلى الرغم من شهرة قصته مع عبله وتحولها إلى أفلام ومسلسلات وأسطورة شعبية يرويها المداخون، فإن كتاب السيرة لا يعتبرونه من «العذريين» مثل قيس وليلى وجميل وبثينة وغيرهم، وإنما أعدوه من «المتيمين» بالحب! وكذلك بالنسبة للشعر..

فعلى الرغم من وصفهم لمعلقته بـ «الذهبية» لحسن التصوير وسهولة ألفاظها وجمال موسيقاها.. فإنهم أيضا لا يعدونه من كبار الشعراء، مع أنه يكفيه قوله هذين البيتين الشهيرين اللذين يكشفان عن حب عميق لا ينسى حتى والحبيب فى حومة البغى، فقد تذكرها والرماح تغزو جسده والسيوف الهندية تقطر بدمه، فأراد تقبيل تلك السيوف اللامعة لأنها تذكره بثغرها المتبسم:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم
وقد أوقف عنتره غزله لعبلة وحدها.. ولم يرغب فى سواها وما هو

ذا يصف نفسه لها وكأنها أوراق اعتماده.. كحبيبها:

يا عبل.. أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها
إني امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها
ولئن سألت بذاك عبلة خبرت ألا أريد من النساء سواها
وأجيبها إما دعت لعظيمة وأغيثها.. وأعف عما ساهها

كما أنك إذا سألت عن حالي في الحرب يخبرك من حضرها بأني
كريم عالي الهمة وأعف عن اغتنام الأموال:

هلا سألت الخيل يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولكن مشكلة عنتره لم تكن مع عبلة.. فقد بادلتها حبا بحب.. بل
هامت به ولم ترغب في سواه.. ولكن مشكلته كانت مع عمه مالك أبي
عبلة الذي رفض هذا الحب وامتنع عن تزويجه إياها.. لأنه عبد أسود
مشكوك في نسبه، ولا يحق له عشق عبلة الحرة! وهو ما كان يؤلم
عنتره.. فيصرخ شاكيا:

يا عبل.. كم يشجى فؤادى بالنوى

ويروعننى صوت الغراب الأسود

كيف السلو وما سمعت حماما

يندبن إلا كنت أول منشد

وسألت طير الدوح كم مثلى شجا

بأنينه وحنينه المتردد

ولم يكتف عمه بالرفض ولكنه اصطحب ابنته ورحل عن القبيلة،
ونزل عند بني شيبان.. فحزن عنتره لذلك حزنا شديدا وخشى أن
يفقدها إلى الأبد:

إذا كان دمعى شاهدى كيف أجدد ونار اشتياقى فى الحشا تتوقد
أقاتل أشواقى بصبرى تجلدا وقلبى فى قيد الغرام مقيد
سأندب حتى يعلم الطير أننى حزين ويرثى لى الحمام المغرد
وقد علم عنتره أن عمارة بن زياد يرغب فى خطبة عبلة وأبوها
لا يمانع، كما علم أن فارسا آخر هو روضة بن منيع السعدى جاء
لخطبتها.. فدعاه إلى المبارزة.. بادئا بقوله:

كم يبعد الدهر من أرجو أقاربه عنى.. ويبعث شيطاننا أحاربه
فياله من زمان.. كلما انصرفت صروفه.. فتكت فينا عواقبه
كم ليلة سرت فى البيداء منفردا والليل للغرب قد مالت كواكبه
يا طامعا فى هلاكى عد بلا طمع ولا ترد كأس حتف أنت شاربه
وعندما وقع فى الأسر فى حرب بين العرب والعجم، وكانت عبلة
من ضمن السبايا، لم يستسلم وتمنى الموت.. وتذكر ما كان بينه وبين
حبيبته.. متحسرا على قسوة الدهر عليه:

يا دهر لا تبق علىّ فقد دنا ما كنت أطلب قبل نا وأريد

يا عبل.. قد دنت المنية فاندبى إن كان جفئك بالدموع وجود
لهفى عليك إذا بقيت سبية تدعين عنتر وهو عنك بعيد
يا عبل.. كم من جحفل فرقته والجو أسود والجبال تميد
فسطا على الدهر سطوة غادر والدهر يبخل تارة ويجود

هكذا كان عنتره وعبلة.. ذكريات قديمة وحب حاضر وفراق دائم..
والغريب أن كتب السيرة والأشعار لم تخبرنا.. كيف كانت النهاية؟..
بل تعددت الروايات فى موت عنتره نفسه الذى قيل أنه بلغ التسعين
من عمره.. وقيل إنه مات مقتولا إثر رميه بسهم مسموم من فارس طئ
يدعى الأسد الرهيص.. ونظرا لكبر سنه وضعف بصره فإنه لم يستطع أن
يتلافى السهم الذى سد إلى ظهره.

ونختم ببعض أبيات لفارسنا الشاعر يشكو فيه الدهر.. وصنوفه..
وما جناه عليه :

أعاتب دهرا لا يلين لناصر
وأخفى الجوى فى القلب والدمع فاضحى
فيارب لا تجعل حياتى مذمة
ولا موتى بين النساء الفوائح
ولكن قتिला يدرج الطير حوله
وتشرب غربان الفلا من جوانحى

نعم يا عنتره.. فقد مت قتिला.. ونعق طير البين على جثتك وشربت
غربان الصحراء من دمك!

ألست أنت القائل :

ناشدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوماً حمول القوم فانعاني
وقل طر يحاً تركناه وقد فنيت دموعه.. وهو يبكي بالدم القاني

□□□

عمر بن أبى ربيعة.. شاعر الحب والغزل

إنى امرؤ مولع بالحسن اتبعه لا حظلى فيه إلا لذة النظر

هكذا وصف نفسه.. فتى قريش المدلل والشاعر الغزلى الشهير عمر بن أبى ربيعة.. الشاب المترف الملول.. الذى كان ينقل فؤاده كما شاء من الهوى، فتعددت النساء اللاتى أعجب بهن وكتب فيهن وعنهن، ومنهن: هند.. ونعم.. والرباب.. وغيرهن كثيرات، وقد ولد عمر عام ٢٣ هجرية يوم وفاة الخليفة عمر بن الخطاب.. فأسماه أبوه - وكان من سادة قريش - على اسمه.. ولكن نظرًا لثراء الأسرة وشباب عمر وماله، فقد نشأ مترفا مدللاً.. يطارد الحسنات ويشبب بهن، مع حفاظه على القيم العربية السائدة وقتها.. بمعنى أنه كان كثير الكلام قليل الفعل.. كعادة الشعراء حيث يقولون ما لا يفعلون.. وإنما هو الخيال الخصب والقدرة والموهبة على تصوير الأحداث والأماكن وكأنها حقائق تاريخية، كما أنه تخصص فى لون واحد من الشعر ويكاد يكون باعث نهضته بعد أستاذه امرؤ القيس، وهو الشعر الغزلى، فلم يهجُ عمر ولم يمدح، أما الفخر.. فقد خص نفسه به وقومه فقط.

حيث قال:

ونعلم أننا سنبيد يوماً كما قد باد من عدد الشعوب
فنجتنب المقازع حيث كانت ونكتسب الغلاء مع الكسوب

ولو سئلت بنا البطحاء قالت هم أهل الفواضل والسيوب

فها هو يعلن عن إيمانه وتمسكه بالقيم العربية واجتناب الفحش والإساءة للغير، ولو سئلت مكة عنا لقالت أننا من أهل الفضل والعطايا. ومع هذه المسحة الإيمانية.. إلا أنه كان معجبا بنفسه أشد الإعجاب.. وكثيرا ما صور نفسه مطاردا من النساء الراغبات فى الوصل، وها هو يصور ثلاث فتيات شقيقات يتحدثن عنه فى غيابيه من كثرة شهرته، وعندما يظهر لهن.. يعرفنه.. كما يعرفن القمر!

قلن: يسترضينها.. منيتنا لو أتانا اليوم فى سرِّ عمر
بينما يذكرننى.. أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم، هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه، وهل يخفى القمر!

ليس ذلك فقط.. بل كثيرا ما صور نفسه محور حياة البعض منهن.. فالدموع تذرف من أجله، ولا تفكير إلا فيه.. ولا أمل لهن إلا أن يسترضينه فيرضى!
حيث يقول:

تقول وعينها تذرى دموعا لها نسق على الخدين تجرى
ألست أقر من يمشى بعينى وأنت الهم فى الدنيا ونكرى
أمالك حاجة فيما لدينا تكن لك عندنا حقا فأدرى!

نعم كان شاعرا غزليا.. إلا إنه كان شاعرا مؤسسا مجددا فتعبيراته

قوية.. وألفاظه موحية.. معاتبة ناعمة جميلة.
واقراً كيف عبر عن عتاب إحدى معجباته:

قالت وأبثثتها سرى وبحت به
قد كنت عندي تحت الستر فاستقر
ألست تبصر من حولي، فقلت لها:
غطى هواك وما ألقى على بصرى
وفى أبيات أخرى.. يقول منها:

لقد دب الهوى لك فى فؤادى
دبيب دم الحياة إلى العروق

فهو الشاعر المدلل المولع بالحسناوات.. يتبعهن أينما كن، ولكن
أهم ما يقال عنه إنه أول من أدخل الشعر القصصى، من خلال قصة أو
موقف.. مصور بالشعر.. فقد أبدع فيه وتفوق به، وله قصيدة شهيرة فى
إحدى محبوباته «نعم» يصور فيها كيف ذهب إليها والناس نيام والتقى
بها وأطفئ نار الوجد منها.. وفاجأهم الصبح.. فسأعتها شقيقتها على
تهريبه.. حتى لا يفتضح أمره!

فقالته لأختيها: أعينا على فتى
أتى زائراً، والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتا:
ألقى عليك اللوم، فالخطب أيسر

فقال لها الصغرى: سأعطيه مطرفي
ودرعى وهذا البُرد إن كان يحذر
يقوم فيمشى بيننا متنكرا
فلا سرننا يفتشو ولا هو يظهر
فكان مجنىً دون من كنت أتقى
ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى:
ألم تتق الأعداء والليل مقمر؟
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

والقصيدة طويلة تتكون من ٦٠ بيتا.. وكلها تصوير للمغامرة التي قام
بها لزيارة محبوبته بعد أن غاب القمر ورحل الرعيان ونام السمار، وبعد
أن قضى غرضه.. هرب فى لبس النساء يسير مع شقيقتها.. فنجا مما
كان يتقى!
وهو ما عايره به بعد مئات السنوات الأمير الشاعر أبو فراس الحمدانى
حين قال:

ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوءته عمر!



قيس بن الملوح [١ - ٣]

عندما يُذكر الحب العذرى فى الشعر العربى ، يتبادر إلى الذهن مباشرة.. قصة (ليلى والمجنون).. ليلى العامرية.. وقيس بن الملوح.. لأن ما كان بينهما لم يكن سوى حب عذرى طاهر.. عبّرت عنه مشاعر متدفقة فى صورة أبيات جميلة تناقلتها الأجيال على مر السنين. فقد كان الاثنان من بنى عامر فى أطراف نجد.. وكانا متجاورين وتجمعهما صلة قرابة.. وكان كل منهما يرعى غنم أسرته.. ومنها «البهْم» وهى صغار الغنم.. ومن ثم كثرت لقاءاتهما.. وتعلق كل منهما بالآخر.. وهما ببعضهما حبا.. ذاك الحب الذى «يصادف قلبا خاليا فيتمكنا».

ويقول قيس عن ذلك :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يبذ للأتراب من ثديها حجم
صغيرين ترعى البهْم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم
كيف يا قيس؟.. فليس كل ما يشتهي المرء يدركه.. فقد كانت عادة
أهل البادية - وهى مستمرة فى الريف المصرى حتى الآن - عندما تكبر
البنات.. وتصبح عروسا تُخطب.. يحجبها أهلها فى المنزل.. وهو ما لا
يقبله العاشق الولهان، وقد عبر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى فى
مسرحيته (مجنون ليلى) بأبيات جميلة على لسان قيس:

سجا الليل حتى هاج لى الشعر والهوى
وما البيد إلا الليل والشعر والحب

ملأت سماء البید عشقا وأرضها وحملت وحدي ذلك العشق يا رب

فعلا.. ما الصحراء.. غير ليل.. وشعر.. وحب.. وقد ملأ قيس سماء
الصحراء وأرضها بهذا العشق دون الوصل مع الحبيب.. فليس أمامه
سوى الشكوى لله.
خاصة.. بعد أن جن شوقه:

وباتت خيامي خطوة من خيامها فلم يشفني منها جوار ولا قرب
إذا طاف قلبي حولها جن شوقه كذلك يطفى الغلة المنهل العذب
يحن إذا شطت ويصبو إذا دنت فيا ويح قلبي كم يحن وكم يصبو

هذه هي الحالة التي كان عليها شاعرنا.. فتى نجد جميل الوجه
ذو الشاعر الفياضة.. كما وصفه أمير الشعراء، أما هو فقد قال عن نفسه
مخاطبا ليلاه:

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل شاقتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهـم بالليل جامع

فقد كان يستنفد النهار بالحديث مع أترابه.. مع التمنى أن يأتى
الليل فيتمكن من رؤياها.. ولكن هذا لم يكن يتحقق فثقله الهموم
ويخاصم عيونه النوم.

ولذلك كان يصطنع الأسباب.. بحجة أنه «قد خلت من دارنا النار»..
وهى حجة لم تخل على أبو ليلي ولكنه يطلب من ابنته أن تقضى لابن

عمها «حقا واجبا» بأن تأتي بوعاء وتملاه حطبا..
ولكن سرعان ما يفضح قيس نفسه معاتبا ليلاه:
كم جئت ليلى بأسباب ملفقة
ما كان أكثر أسبابى وعلاتى
بالروح ليلى قضت لى حاجة عرضت
ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتى
مضت لأبياتها ترتاد لى قبسا
والنار يا روح قيس ملء أبياتى
فيا ليلى لا تعطنى نارا.. فالنار مشتعلة فى قلبى.. وتسارع ليلى
بالرد.. وتكون أكثر صراحة:

قد تحملت فى الهوى فوق ما يحمل البشر
لك قلب.. يا قيس فسله ينبئك بالخبر
ما فؤادى حديد.. ولا حجر

وبعدين يا ليلى.. ماذا أفعل..؟
هكذا عقب قيس:

لست ليلى داريا كيف أشكو وأنفجر
أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر؟

وعندما تتأكد ليلى من عمق غرامه بها.. «تنقح» عليها طبيعة الأنثى..
فتتدلل وتسأله عن الأشعار التى قالها فى بعض الحسنات.. «كل ظبى

لقيته .. صغت فى جيده الدرر».

إيه يا قيس.. «أترى قد سلوتنا.. وعشقت المها الآخر»؟

وبالطبع ينفى قيس.. ويتعلل بأنهن يشبهنها.. ولذلك قال فيهن
بعض الشعر.. ولكنك يا ليلى: لست كالغيد لا.. ولا قمر البيد كالقمر».
ثم يزيدھا حججا.. وإقناعا.. بإخلاصه:

رب فجر سألته	هل تنفست فى السحر
وريحاح حسبتها	جررت ذيلك العطر
وغزال جفوننه	سرقنت عينك الحور

□□□

نوادير المجنون [٢ - ٣]

لقد تعلق كل من قيس بن الملوح وليلى العامرية ببعضهما البعض واعترافهما بالحب المتبادل وأنه كان يصطنع الأسباب لرؤياها.. حتى إن أباهما اتهمه أنه جاء ليشعل البيت نارا.. وليس ليطلب نارا!

وقد كان ذلك من خلال أبيات المسرحية الشعرية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي.. والتي لم تختلف وقائعها عما جرى بالفعل.. فقد روت الكتب أن قيسا كان يمر بحى ليلى وهو راكب ناقة له، وعندما رآها تجلس مع بعض النسوة نزل وجلس معهن وأخذ يحدثهن وعينه معلقة بليلى التي حاولت التغطية على ما يحدث فأمسكت معه اللحم وهو يقطعه، ففوجئت به يقطع كفه بالسكين وهو شاخص فيها.. وعندما وضع اللحم على النار.. فوجئت به أيضا يمد يده إلى الجمر ويقلب به اللحم.. فاحترقت دون أن يشعر!

وفى ليلة أخرى.. جاءهم ضيوف.. فأرسله أبوه إلى خيام عمه ليطلب منه آدم (غموس) فطلب الأخير من ابنته أن تحضر (حق السمن) وتملاً لقيس منه إناء.. فجعلت تصب السمن وهما يتحادثان.. حتى سال السمن من الإناء.. ونزل على أقدامهما وهم لا يدريان.

ويحكى قيس أنه أتاهم فى ليلة أخرى يطلب نارا وهو متلفح ببرد (ثوب) فأعطته ليلى النار فى خرقة.. ووقفا يتحادثان، «فلما احترقت الخرقة قطعت من ثوبى خرقة أخرى ووضعت بها النار، وكلما احترقت

خرقة قطعت أخرى.. حتى لم يبق على من الثوب إلا ما ستر عورتى! هكذا كان حاله.. لا يرى غير ليلى.. ولا يسمع لغير صوتها وعندما سئل ما الذى أعجبك منها؟.. أجاب: كل شىء.. رأيت وسمعت منها أعجبنى.. والله ما رأيت شيئا منها قط إلا كان فى عيني حسنا.. وطلب منه وصفها فقال:

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنج ليل مُبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد

ولم يكن الأمر بينهما يخلو من الهجر والممانعة.. وهو ما كان يزيد العشق بينهما اشتعالا.. فقد تصادف أن وجدها تحادث فتى بالحي يسمى منازل.. وكان قيس يعتبره غريمه فى حب ليلى.. فجزع وغضب غضبا شديدا وهم بالانصراف حزينا.. إلا أن ليلى لحقت به تسترضيه وهى تقول:

كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين
تبلَّغنا العيون بما أردنا وفى القلبين ثم هوى دفين
وأسرار الملاحظ ليس تخفى إذا نطقت بما تخفى العيون

نعم يا ليلى.. فالصب تفضحه عيونه.. ودلائل الحب لا تخفى على أحد.. ولكن قيس بدأ يشعر بالتشاؤم.. والقلق خاصة بعد أن أحس أنه لم يعد مرحبا به عند أهلها.. ولذلك انصرف.. وهو يقول:

أظن هواها تاركى بمضلة من الأرض لا مال لدى ولا أهل

ولا أحد أفضى إليه وصيتى ولا صاحب إلا المطيعة والرحل
محا حبها حب الآلى كُن قبلها وحلت مكانا لم يكن حُلّ من قبل

وزاد من وجيعته أيضا رد فعل أهلها على ما يسمى «بالتشبيب» وهو انتشار الشعر الذى كان يقوله قيس فى ليلى بين الناس.. وهى عادة كانت العرب ترفضها تماما.. خاصة بعدما انحازت ليلى لموقف أهلها وترفض مقابله.. وهو ما دفع قيس لأن يقول:

وما كشكرى شكر لو يوافقنى ولا منأى سواه لو يواتينى
أطعته وعصيت الناس كلهم فى أمره وهواه وهو يعصينى
وعندما طالقت القطيعة بينهما.. أرسل لها رسولا وطلب منه أن يقف بالقرب من خيمتها حيث تسمعه.. ويقول:

الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكنى أعزّيتها
منيتك النفس حتى قد أضربها واستيقنت خلفا مما أمنيها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت أشهى إلى من الدنيا وما فيها
وعندما سمعت ليلى تلك الأبيات.. بكت بكاء شديدا.. وطلبت من الرسول أن يبلغه السلام ويقول له:

نفسى فداؤك لو نفسى ملكت إذن ما كان غيرك يجزيها ويرضيها
صبرا على ما قضاه الله فيك على مرارة فى اصطبارى عنك أخفيها

وعندما أبلغ الرسول قيسا بما قالت ليلى سقط مغشيا عليه!
ومع مرور الأيام لاحظت أمه تركه للطعام والشراب.. فأشفت عليه

وأرسلت لليلى ترجوها زيارته.. لعله يعود عما هو فيه ويتوب إلى رشده.
وجاءته ليلى فعلا وقالت له إن أمك تزعم أنك جننت من أجلى.. فاتق
الله وأبق على نفسك فأخذ يبكى ويقول:

قالت جننت على رأسى فقلت لها
الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه
وإنما يصرع المجنون فى الحين

واستمر قيس على حاله.. حتى قال قومه لأبيه: لعل الجن قد أصابه
فكان يأتيه بالتعاويذ ويرقيه ويرش عليه الماء لعل الجن تنصرف عنه..
ولكن قيسا كان يعلم بدائه.. وكان يقول:

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ولو عقلوا قالوا به أعين الإنس
أو كما قال أمير الشعراء:

وإن عجز الطبيب لقال داء بمس الجن ليس له دواء
مسكين يا قيس لقد كنت فتى نبة الشعر قدره حرموك من ليلى..
ورفض أبوها زواجها منك وأهدر الحاكم دمك إنك أنت القائل:
أحب من الأسماء ما وافق اسمها أو أشبهه أو كان منه مدانيا

□□□

ليلى فى العراق وقيس فى الكعبة [٣ - ٣]

تحلق حول قيس أصحابه من شباب الحى بجبلى النعان.. وهو يبكى من شدة الوله.. ويتعذب من ألم الفراق.. وهم يحاولون التسمية عنه ومواساته بعد فراق ليلى، وظلوا على حالهم هذا أياما عدة.. دون جدوى.. حتى هطلت السماء بأمطار غزيرة.. أعقبها سيول كثيرة.. جعلت الدمع يتساقط من عين العاشق الموجوع.. فأخذ يبكى وينشد:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى
وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه
يكون بوابٍ أنت فيه قريب
أظل غريب الدار فى أرض عامر
ألا كل مهجور هناك غريب
ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر
حبيبا ولم يطرب إليك حبيب

وأخذه أصحابه إلى جبل آخر.. «التوباد» ليروحووا عنه، لعل رشده يعود إليه.. ولكن هيهات.. فقد تذكر أنه وليلى فى صباحهما كانا يرتادان هذا الجبل وهما يرعيان أغنام قومهما، ولما ذهب عقله.. كان يذهب وحده إلى هذا الجبل ويقيم فيه، ثم يهيم على وجهه حتى يصل إلى

نواحي الشام ، فيسأل من يصادفه : أين أنتم من أرض بنى عامر؟ ..
فيخبرونه - بعد أن يرقوا لحاله - إنه بالشام وعليه أن يتبع نجم كذا
حتى يعود إلى دياره ، ولكن كثيرا ما كان يجد نفسه في أرض غريبة ..
فيسأل : أين أنا من أرض بنى عامر؟ .. فيجيبه من يسأله : أنت في
اليمن وعليك أن تتبع نجم كذا للعودة إلى قومك .
وقد تذكر قيس كل ذلك عندما وقعت عيناه على جبل التوباد فأخذ
يبكى ويقول :

وأجهشت للتوباد حين رأيته
وكبر للرحمن حين رآني
وأذرفت دمع العين لما عرفته
ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له : قد كان حولك جيرة
وعهدى بذاك الحى منذ زمان
فقال : مضوا واستودعوني حديثهم
ومن ذا الذى يبقى على الحدثان
وقد أتاه من أخيره أن ليلى ارتحلت مع أبيها وقومها ناحية العراق ..
وأنها مريضة .. فزاد همه واشتد ألمه .. وأخذ ينشد :

يقولون ليلى بالعراق مريضة
فياليتنى كنت الطبيب المداويا

تمر الليالى والشهور ولا أرى
غرامى لها يزداد إلا تماديا
ألا يا حمامات العراق أعننى
على شجنى، وابكين مثل بكائيا

ثم اشتد المرض عليه.. وطال جنونه.. فقال بعض رجال الحى لأبيه :
احجج به إلى مكة وادع الله أن يلفظ به.. وأمره أن يتعلق بأستار
الكعبة.. ويسأل الله أن يعافيه مما به.. ويبغض ليلى إليه.. لعله يخلص
من هذا البلاء، ولكن يموت الزمار وأصابه تلعب.. كما يقول المثل..
فأثناء سيره مع أبيه فى أحد الأودية لاحظ حمام يتجاوب.. فبكى
قائلا:

ألا يا حمام الأيك مالك باكيا
أفارقت إلفا أم جفاك حبيب
دعاك الهوى والشوق لما ترنمت
هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقا قد سمعن لصوتها
فكل لكل مسعد ومجيب

وعندما بلغوا منى أقاموا فيها.. وفى الليل سمع أحد الأشخاص
يصيح: يا ليلى.. فصرخ المجنون صرخة خلعت قلوب من حوله..
وسقط مغشيا عليه.. ثم أفاق فى الصباح أصفر الوجه ذاهلاً، فأنشد
يقول:

عرضت على قلبى العزاء فقال لى
 من الآن فايأس لا أغرك بالصبر
 إذا بان من تهوى وأصبح نائيا
 فلا شيء أجدى من حولك القبر
 ودعا داع إذ نحن بالحيف من منى
 فهيج أشجان الفؤاد وما يدرى
 دعا باسم ليلى غيرها فإنما
 أطار بليلى طائر كان فى صدرى
 دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه
 وليلى بأرض عنه نازحة قفر

وبعدما هبطا من منى.. طلب منه أبوه أن يتعلق بأستار الكعبة.. وأن
 يسأل الله تعالى أن يعافيه من حب ليلى، فتعلق قيس فعلا بأستار الكعبة
 وقال: اللهم زدنى بليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا..
 ثم أنشد شعرا:

دعا المحرمون الله يستغفرونه
 وناديت أن يارب أول سؤلتى
 فإن أعط ليلى حياتى لا يتب
 وكم قائل قد قال تب فعصيته
 فيما نفس صبيرا لست والله فاعلمى
 بمكة وهنا أن تمحى ذنوبها
 لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها
 إلى الله خلق توبة لا أتوبها
 وتلك لعمرى توبة لا أتوبها
 بأول نفس غاب عنها حبيبها

ثم انطلق فى الصحراء هائما.. وكان لا يأكل إلا ما تنبت الأرض ولا
يشرب إلا مع الظباء.. وطال شعر جسده ورأسه حتى ألقته الوحوش ولم
تكن تنفر منه.



قيس ولبنى [١ - ٣]

وهذا قيس آخر.. فتى كنانة المدلل.. الذى أحب وعشق مصادفة.. حيث أتاه هوى «لبنى» قبل أن يعرف الهوى.. فصادف قلبه الخالى فتمكن منه ، إنه قيس بن ذريح والذى اشتهر بأنه رضيع الحسين بن على رضى الله عنه.. فقد رضعا من ثدى واحد، وقد تصادف أنه مر ذات يوم بخيام قبيلة كعب بن خزاعة، وطلب شربة ماء.. فخرجت له بها من خيمتها فتاة طويلة القامة جميلة الطلعة حلوة الحديث.. إنها لبنى بنت الحباب الكعبية.. وما أن رآها حتى تعلق بها.. وظل يحدثها حتى أتى أبوها وتعرف عليه وأكرمه، وبعد انصرافه أخذ يردد الشعر فيها.. ثم عاود الزيارة واشتكى كل منهما بما فى نفسه نحو الآخر.. وفضحت عيونهما ما تخفيه قلوبهما.

وبعد فترة طلب من أبيه أن يخاطب له لبنى.. فرفض ونصحه بزواج إحدى بنات عمه.. فهن أحق به.. كما أنه لا يرغب أن يذهب ماله لغرباء.. فشكى لأمه موقف أبيه فكانت أشد قسوة عليه، فذهب لشقيقه فى الرضاعة الحسين بن على فلم يخذله وقام معه نحو قومه وحلف على أبيه أن يخاطب له لبنى.. وخرجوا جميعا حتى أتوا قومها وخطبوها.. وزفت إليه.. وأقاما معا سعيدين بحبهما وزواجهما.

ولكن رغد العيش من المحال أن يستمر.. فسرعان ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد كانت أمه غير راضية عن تلك الزيجة..

وانتظرت حتى مرض قيس فخطبت أباه بأنها تخشى أن يموت ابنها ولا يترك خلفا له فزوجته لا تنجب ، وهو ذو مال كثير ، فطلبت من أبيه أن يزوجه غيرها ، وعندما فاتحه أبوه بذلك .. وضعه قيس أمام ثلاثة خيارات : إما أن يتزوج هو فيرزق بولد ثان ، أو أن يرحل هو ولبنى عن الحي ، أو يتركها معهم ويرحل هو ، فرفض أبوه وأقسم عليه إن لم يطلقها فلن يجمعهما سقف واحد ، وكان يخرج من الخيمة ويقف تحت أشعة الشمس وحرها .. فيخرج إليه قيس ويجاوره ويظله برداءه حتى يسقط الظل عليه .. فينصرف عنه .

وكانت لبنى هي الأخرى تشجعه على ذلك .. وكانت تقول له : يا قيس لا تطع أباك فتهلك وأهلك معك .. وكان يجيبها : ما كنت أطيع أحدا فيك أبدا ..

ولكنه بمرور الأيام لم يستطع مقاومة ضغط والديه ، وما أن نطق بالطلاق حتى طار عقله ومسه شيء من الجنون ، وانطلق الشعر على لسانه .. ليعبر به عن حزنه ويأسه .. فقال :

يقولون لبنى فتنة ، كنت قبلها

بخير فلا تندم عليها وطلق

وددت وبيت الله إنى عصيتهم

وحملت فى رضوانها كل موبق

وكلفت خوض البحر والبحر زاخر

أبيت على أثباج موج مغرق

كأنى أرى الناس المحبين بعدها

عصارة ماء الحنظل المتدفق

وتنكر عيني بعدها كل منظر

ويكره سمعى بعدها كل منطق

أما عن لبنى فقد علمت بخير طلاقها.. وحزنت حزنا شديدا،
وأرسلت إلى أبيها تخبره فأتاها، وعندما علم قيس بذلك حاول الاقتراب
من خيمتها فمنعه أهلها.. وعندما شاهدها راحلة سقط مغشيا عليه، ثم
أفاق وأنشد:

وإنى لفرن دمع عيني بالبكا حذار الذى قد كان أو هو كائن
وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبين وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيك إلا أن ما حان حائن
وهو على حاله هذا رأى غرابا أسود يسقط بجانبه.. فانزعج وتطير
منه ثم قال:

ألا يا غراب البين ويحك نبئى

بعلمك من لبنى وأنت خير

فإن أنت لم تخبر بما قد علمته

فلا طرت إلا والجنح كسير

ودرت بأعداء حبيبك فيهم

كما قد ترانى بالحبيب أدور

وعندما أتى عليه الليل.. وحل الظلام.. دخل إلى مضجعه.. وأخذ
يتمرغ فيه متوجعا.. باكيا يقول:

بت والهـم يا لبـنى ضجـيعى
وجرت - مذ نأيت عنى - دموعى
وتنفست إذ ذكـرتك حتى
زالت اليـوم عن فؤادى ضلوعى
ليتنى قد فـدتك نفسى وأهلى
هل لدهـر مضى لنا من رجوع

وجاء الصبح.. فخرج مسرعا نحو الطريق الذى سلكته يتنسم روائحها..
ويتذكر حديثها.. ثم شاهد ظبية فحاول الاقتراب منها ولكنها نفرت
منه.. فأنشد:

ألا يا شـبه لبـنى لا تراعى ولا تتيممى قـلـل القـلاع
وأصبحت الغداة أـلـوم نفسى على شىء وليس بمـستطاع
وقد عشنا نلذ العيش حينـا لو أن الدهـر للإنسان راع
ولكن الجـمـيع إلى افتراق وأسباب الحـتـوف لها دواع

وظل يعاتب نفسه على طاعته لوالديه وطلاقه للبني.. ويقول: لقد
جنيت على نفسى.. فلماذا لم أذهب بها بعيدا.. وها أنا الآن ميت..
فمن يرد روحى إلى..

وانسابت دموعه على خديه حتى بللت معطفه.. واشتد بكأؤه وهو

يلصق خديه بالأرض.. ويقول:

وكل مصيبات الزمان وجدتھا

سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب

□□□

قيس ولبنى وغربان النوى [٢ - ٣]

حزنت لبني حزنا شديدا بعد طلاقها من قيس ورحيلها إلى ديار قومها، وكانت دائما ما تسأل عنه كل من يأتيها من عشيرته.. وتطلب منهم أن يرددوا عليها أشعاره.. وهي تبكي على ما حدث لهما.. وتذكرت ذات يوم قوله في غراب البين (غراب أسود صغير).

”ألا يا غراب البين قد طرت بالذي أحاذر من لبني فهل أنت واقع“
وأمرت غلامها بأن يصطاد كل غراب أسود يراه.. وذات يوم جاءها بأربعة غربان، فأخذت تضربهم.. وأمسكت بأحدهم ففتفت ريشه وهي تقول:

لعمري لقد صاح الغراب ببينهم

فأوجع قلبي بالحديث الذي يبدي

فقلت له: أفصحت، لا طرت بعدها

بريش فهل للقلب ويحك من رد

وأخذت الثاني وكتفته وشدت رجليه بخيطين وباعدت بينهما، وهي تخاطبه: أتبكي بلا دمع وتفارق بين الناس بلا حق، فمن أحق منك بالقتل الآن.. ثم تنشد:

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببينهم الغراب الأبقع
فزجرته أن لا يفرخ بيضة أبدا ويصبح واقعا يتفجع
إن الذين نعت لى بفراقهم هم أسهدوا ليلي التمام فأوجعوا

ثم أخذت الثالث فنتفت ريشه أيضا ثم ضربته حتى مات وهي تبكى
وتقول:

ألا يا غراب البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير
فبين لنا ما قلت إذ أنت واقع وبين لنا ما قلت حين تطير
فإن يكُ حقا ما تقول فأصبحت همومك شتى والجناح كسير
ولازلت مكسورا عديما لناصر كما ليس لى من ظالمى نصير
وجاءت بالربع وكسرت جناحه.. وأخذت تضرب فيه وتردد قول
قيس:

لقد نادى الغراب ببين لبنى فطار القلب من حذر الغراب
فدخل أبوها عليها وهي فى تلك الحالة، وسألها لماذا تفعل ذلك؟..
فأجابته إن قيسا دعا عليهن بالوقوع فلم يقعن.. فقال لها إنك وقيسا
تظلمان الغريان.. ألم تسمع قول القائل:

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذاك صرت أحب كل غراب
قالت يا أبى ليس البيت كما قلته وإنما هو كالأتى:

نعب الغراب بفرقة الأحباب فلذاك صرت عدو كل غراب
فتركها والدها وشكاها لأمها من سوء فعلها وقولها وحننها وحسرتها،
أما قيس فقد عانى من لوعة الفراق ولم يستطع نسيان لبنى.. وظل
يواجهها بأشعاره.. ومنها:

أحبك أصنافا من الحب لم أجد
لها مثلا في سائر الناس يوصف
فمنهن حب للحبيب ورحمة
بمعرفتي منه بما يتكلف
ومنهن أن لا يعرض الدهر ذكرها
على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر
وحب لدى نفسى من الروح أطف

وأحيانا كثيرة كان يذهب للنوم مبكرا لعلها تأتيه فى المنام.. فيمتع
عينه بالنظر إليها.. ويسعد بحديثها وحلو كلامها.. وفى ذلك قال:

وانى لأهوى النوم فى غير حينه لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام إنى أراكم فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أحل عن مودة وأنى بكم لو تعلمين ضنين
وظل دائم التطلع إلى أيامه السابقة معها.. لائما لنفسه على ما فعل
بطلاقها قائلا:

أتبكى على لبنى وأنت تركتها
وكنت كآت حتفه وهو طائع
ألا إنما أبكى لما هو واقع
فهل جزعى من وشك ذلك نافع

وما كل ما منتك نفسك خاليا
تلاقى ولا كل الهوى أنت تابع
نهاري نهار الوالهيّن صباية
وليلي تنبو فيه عنى المضاجع
وقد كنت قبل اليوم خلوا وإنما
تقسم بين الهالكين المصارع

ولما أضناه الحب.. واشتد به الوجد.. وهزل جسده اصطحبه بعض
رفاقه إلى ديارها لعله يحظى بنظرة أو لقاء، فلما وقعت عيناه عليها سقط
مغشيا عليه وعندما أفاق أخذ يقول:

الله يدري وما يدري به أحد
ماذا أجمجم من ذكراك أحيانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم
إلا على العهد حتى كان ما كانا
أن تصرمى الحبل أو تمسى مفارقة
فالدهر يحدث للإنسان ألوانا

وبعد حين أشار عليه بعض القوم أن يذهب إلى الحج لعل الله يخفف
عنه ما يعانيه، ولكن تصادف أن لبني أيضا ذهبت للحج هي الأخرى..
فأها فثبت مكانه مندهشا.. ولم ينطق وعندما ابتعدت عنه أخذ يبكي
ويقول:

ويوم منى أعرضت عنى فلم أقل بحاجة نفس عند لبني مقالها

وفي اليأس للنفس المريضة راحة
إذا طلعت شمس النهار فسلمى
عشر تحيات إذا الشمس أشرقت
عشر إذا اصفرت وحان رجوعها
إذا النفس رامت خطة لا تنالها
فآية تسليمى عليك طلوعها

□□□

قيس ولبنته.. والموت كمدا [٣ - ٣]

عاد قيس من الحج حزينا يائسا.. وأصابه المرض حتى كاد أن يقتله، فاستنكر أهله حاله، وما أوصل نفسه إليه، فعاتبهم على ما يقولون وأرجع السبب إليهم وخاصة أبويه، وحزنت أمه عليه حزنا شديدا.. وحاولت التسرية عنه، وأرسلت له بفتيات من عشيرته يمازحهن ويعبن لبنى عنده.. فيما هو كأنما لا يراهن ولا يسمعهن، فلما أظن عنده انتبه لهن وعاتبهن.. مواسيا نفسه.. قائلا:

يقر بعيني قربها ويزيدني

بها كلفا من كان عندي يعيبها

فيا نفس صبرا لست والله فاعلمي

بأول نفس غاب عنها حبيبها

وفعل أبوه ما فعلته أمه.. حيث طلب من بعض فتيان وفتيات القبيلة أن يعدنه ويحدثنه لعله يتسلى عن ذكر لبنى ولكن دون جدوى.. فأحضرها له طبيبا ليداويه وسأله سبب علته.. فأجاب:

عيد قيس من حب لبنى ولبنى داء قيس والحب داء شديد
وإذا عادني العوائد يوما قالت العين لا أرى ما أريد
ليست لبنى تعودني ثم أقضى إنها لا تعود فيمن يعود
ويح قيس لقد تضمن منها داء خبل فالقلب منه عميد

فنصحه الطبيب أن يتذكر مساوئها ومعاييبها.. فعندها سوف تنفر
منها نفسه ويسلوها عقله ويتداوى من حبها قلبه ، ولكن هيهات..
فسرعان ما أنشد قيس :

إذا عبتها شبهتها البدر طالعا

وحسبك من عيب لها شبه البدر

لقد فضلت لبني على الناس مثلما

على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وبعدما طال المرض على قيس واشتد أثره عليه ، أشار بعض القوم على
أبيه أن يزوجه بأخرى.. وعليه أولا أن يطلب منه الخروج إلى أحياء
العرب المختلفة والنزول عليهم لعل عينيه تقعان على فتاة أجمل من
لبني فيعجب بها.

ولكن قيسا رفض.. فأقسم عليه أبوه أن يفعل ، فسار حتى نزل قبيلة
فزارة ، فرأى فتاة حسناء وكأنها البدر في طلعتة ، فسألها عن اسمها..
فأجابته : لبني ، فسقط مغشيا عليه ، فضبت على وجهه الماء حتى أفاق
وعرفها بنفسه فناشدته بالله أن ينزل عندهم.. حتى حضر شقيقها
فأكرمه وحلف عليه أن يقيم عندهم شهرا ، وعرض عليه مصاهرته ، فرد
قيس بأنه مشغول بأخرى.. ويخشى أن يظلم أخته.. وهو معجب بها ،
ولكن الفتى ألح عليه ، وأهله يلومونه أن يعيبهم العرب لذلك ، ولكنه
استمر في دعوته قائلا (مثل هذا الفتى يرغب الكرام) وعرض أن يدفع
مهر شقيقته ، ولكن قيسا رفض وتوجه إلى قومه وأخبرهم بما حدث..

فسعدوا بذلك.. وأمهرروا الفتاة مهرا كبيرا.. وتم الزواج وأدخلوا عليه زوجته فلم يهش لها ولم يدن منها، ولم تمتد يده إليها وبعد أيام قليلة طلب الرحيل إلى أهله وترك زوجته عند أهلها.

وعلمت لبنى «الحبيبة» بما حدث، فقررت إطاعة أهلها فى الزواج بما يعرضونه عليها، فقد نكث قيس الوعد ونقض العهد، وعندما علم قيس بذلك، حاول الاتصال بلبنى ولكن أهلها منعوها من ذلك وهددوها بقتله إن فعل، وقد أذن لهم الأمير بذلك، فأرسلت إليه تحذره.. فقال:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها

مقالة واش أو وعيد أمير

فلن يمنعوا عينى من دائم البكا

ولن يذهبوا ما قد أجن ضميرى

إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى

ومن حرق تعادنى وزفير

ومن ألم للحب فى باطن الحشا

وليل طويل الحزن غير قصير

وعندما سمع قيس بزواج لبنى وأنها زفت إلى زوجها بالفعل ركب ناقته متوجها إلى ديار قومها، فاعترضته النساء وعاتبته، وكذلك فعل فتیان حيهها.. وطلبوا منه الرحيل، ولما سمعت لبنى ما حدث معه أرسلت إليه رسولا ليسأله: لم تزوج بغيرها؟ فقص عليه قيس ما حدث.. وحلف له بأنه لو رأى زوجته الجديدة بين النساء ما عرفها.. فلم

تتكحل عينه برؤيتها.. ولا كلمها ولا نظر لها.. فأخبره الرسول بأن
لبنى مازالت على العهد.. فأرسل معه بعض أبياته يقول فيها:

أصونك عن بعض الأمور مظنة
وأخشى عليك الكاشحين الأعاديا
تساقط نفسي حين ألقاك أنفسا
يزدن فما يصدرن إلا صواديا
وبين الحشا والنحر منى حرارة
ولوعة وجد تترك القلب ساهيا

وعندما علم زوج لبنى بما بينهما من مراسلات ورسل وأشعار أنبها
على ذلك.. فغضبت.. وأخبرته أنه كان يعلم بزواجها من قيس وأنه
أكره على طلاقها.. وما تزوجته هو إلا حماية لقيس من القتل!
ومرت الأيام.. وعاود المرض قيسا، وأصبح لا يفيق من غشيانه،
وعندما كان يفيق.. يعود لذكرها ويردد:

وإن تك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيع ما إليه سبيل
فإن نسيم الجوّ.. يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحى تلتقى ونعلم أنا بالنهار نقييل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول

ولقد بلغ أهل زوجته الثانية خبره.. واستمرار علاقته بلبنى الأولى..
فكتبوا إليه يعاتبونه، فقال لرسولهم: إننى مشغول عن كل أحد.. وأبلغ

أخاها أننى فوضت الأمر إليه فليحكم فيه بما يرى.. ورفض الفزارى أن يفرق بينهما، ولم تلبث شقيقته أن ماتت!

ويقول الرواة إن الحسين بن علي شقيق قيس فى الرضاة تدخل هو وشقيقه الحسن وطلبا من زوج لبنى تطليقها وعوضوه عن ذلك بمال كثير، ثم طلبا من أبيها بأن يردها إلى قيس.. ففعل.. والتقى الشيتان بعد أن ظن كل الظن أن لاتلاقيا، ولكنها سرعان ما ماتت أيضا! فتتبعها قيس فى جنازتها يندبها ويبكيها ويقول:

ماتت لبينى فموتها موتى هل تنفعن حسرتى على الفوت
وسوف أبكى بكاء مكتئب قضى حياة وجدنا على ميت
ثم انكب على القبر نائحا حتى أغشى عليه.. فحمله أهله إلى منزله.. فما مكث غير قليل.. عليلا لا يفيق حتى مات ودفن بجوارها..
رحمة الله على الثلاثة.. قيس ولبناته.



١ - جميل وبثينة.. والحب صدفة

لا تختلف قصة حب جميل بن معمر وبثينة بنت حبا عن قصص باقى «العشاق» من بنى عذرة، سوى أنها بدأت مصادفة.. وبعد مشاجرة وعتاب، ثم شعر وحب!

فقد تصادف أن كان جميل بأحد الأودية القريبة من المدينة المنورة يروى إبله من بئر الماء التى تسقى منها أيضا عشيرة بثينة، وأثناء مرورها مع صاحبات لها نقرها بعير.. فاستشاطت غضبا وأساءت القول لجميل، فتبادلا العتاب.. ثم انصرفت بعد أن أعجب بها جميل.. ووقع فى قلبه حبها.. وبدأ ينظم فيها الشعر ويقول فيها الغزل، وعندما علمت بثينة بذلك بادلتها حبا بحب.. وأخذا يلتقيان ويتشاكيان من شدة الوجد.. وعذاب الحب.

وبعد حين وشتت بها جارية لها وأخبرت أباهما وأخاها بما بينهما، وأعلمتهما موعد لقائهما، فتربصا بهما فلاحظا جلوس جميل بعيدا عنها وعلى مسافة تسمع منها حديثه وسمعاه يطلب منها أن تجازيه على حبه لها، فسألته: بماذا؟ فقال: بما يكون بين المحبين، فأنكرت عليه طلبه، فأخبرها: أنه ما أراد منها قبيحا، إنما أراد أن يختبرها. وأضاف أنه لو كان رأى منها غير ذلك لضربها بسيفه وهجرها إلى الأبد.. ثم قال:

وانى لأرضى من بثينة بالذى

لو أبصره الواشى لقرت بلابله

بلا، وبأن لا أستطيع، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب أمله
وبالمنظرة العجلى وبالحوال تنقضى
وأخيره لا تلتقى وأوائله

وعندما سمع أبوها وأخوها ذلك.. انصرفا وتركاهما، فلم يريا منهما
ريبة ولا عيبا فهما أبناء عمومة.
وأكمل جميل حديثه.. معبرا عن حبه بقوله:

لقد قلت فى حبى لكم وصباى
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى
محاسن شعر ذكرهن يطول
هبوب الصبا يابثن كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالك لحظة
ولا زال عنها، والخيال يزول

وظلا يتحدثان حتى فاجأهما الصبح.. فسما وودعا.
وكعادة الفتيات عندما تتدلل وتختبر المحب.. فقد حاولت بثينة
التقرب من أحد فتيان العشيرة فى وجود بعض النسوة وكأنها تطلب
منهن أن يخبرن جميل بما حدث، وعندما علم جميل بذلك.. قال
معاتبا:

وعدنا كأننا لم يكن بيننا هوى
وقالوا نراها يا جميل تبدلت
وصار الذى حل الحبال هوى لها
وغيرها الواشى، فقلت: لعلها
ولكن بثينة تمادت فى ذلك.. لعلها تزداد يقينا من حب جميل لها..
خاصة بعد أن علمت ما قاله فيها:

ياليتنى ألقى المنية بغتة إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو أستطيع تجلدا من ذكركم فيفيق بعض صبابتي وتفكرى
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبير

ورقت له بثينة.. وتواعدا.. وتعاتبا.. فأنشد جميل:

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة

وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وإنى لتثنينى الحفيظة كلما

لقيتك يوما أن أبثك ما بيا

وكما هي عادة العرب فى تلك الفترة.. فبعد أن انتشر شعر جميل فى بثينة وهو ما يسمونه «التشبيب» فقد منعوها من لقائه.. وحذروه.. وهددوه بالقتل إن لم يرتدع، ولكنه لم يمتنع.. وأخذ يقول:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي وهوم بقتلى يابثن لقونى
إذا ما رأونى طالعا من ثنية يقولون: من هذا وقد عرفونى
يقولون لى: أهلا وسهلا مرحبا ولو ظفروا بى ساعة قتلونى

وظل جميل ممنوعا من رؤية بثينة مدة طويلة، وكان يستعيض عن ذلك بالمبيت عند شجرة قريبة من حيهم، وأحيانا كان يمتد ذلك إلى ثلاثة أيام متواصلة، وعندما علمت بثينة بذلك.. غافلت أهلها وذهبت إليه، فسلما على بعضهما سلاما حارا ثم جلسا صامتين حتى طلع الصبح فودع كل منهما الآخر.. وقد عبر عن ذلك جميل فى أبيات جميلة منها:

وإن تك قد شطت نواها وقد نأت
 فإن النوى مما تشت وتجمع
 وإن يك طول الحب يا قلبى ناعى
 فقد طالما أحببت والصبر أنفع
 ولست كمن يفشى على الخدن سره
 وعندى له فى الصدر سر وموضع
 وأنسى إذ لاقيتها بخلائها
 من القول ما قد كنت بالأمس أجمع
 فيارب حبنى إليها وأعطنى
 منها المودة أنت تعطى وتمنع
 وإلا فصبرنى وإن كنت كارها
 فإنى بها يا ذا المعارج مولى
 وفى الصبر عن بعض المطامع راحة
 إذا لم يكن فى الشىء نرجو مطمع

طال المنع.. وتعذر اللقاء.. فلم يجد جميل بدا للخلاص مما يعانيه
 من عذاب الفراق ولوعة الحب، سوى التقدم لخطبة بثينة من أبيها..
 ولكن هيهات فالعرب كانوا يكرهون من يشيب بيناتهم، وتقدم لخطبتها
 ابن عم لها يسمى نبيه.. فوافق أبوها، ودخل بها على كره منها، وعلم
 جميل بما حدث.. فبكى بكاء شديدا.. وأخذ ينشد وكأنه يندب:

أنت حديث النفس إن كنت خاليا
 وجل حديثى أنت فى الجدل والهزل

فلا تقتليني يا بئير فلم أصب
من الأمر ما فيه يحل لكم قتلى
ويارب لا تجعل بئيرة شقوة
على ولا تجعل بهجرانها قتلى

□□□

٢ - جميل وبثينة .. والموت حزنا

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفانيت عمرى فى انتظار نوالها
وأبليت فيها الدهر وهو جديد
فقد تلتقى الأشتات بعد تفرق
وقد تدرك الحاجات وهى بعيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها فيعود

هكذا كان حال جميل بعد زواج بثينة.. ذكرى.. وعتاب.. وأمل فى اللقاء.. ووصف لحاله، وكيف تشتعل نار الحب فى قلبه مع الفراق وسرعان ما تنطفىء مع اللقاء.

وكذلك كانت بثينة لم تنسه.. ولكنها كانت تتابع أخباره وتساءل عن أشعاره، وكانت تبعث إليه برسائلها من خلال جارية مؤمنة لها. وفى ليلة ظلماء تسلل جميل إلى خيام بثينة.. وكان زوجها غائبا ومعهما عجوز من قبيلتها.. فنادى عليها فأدخلته إلى خيمتها وهو يقول:

لها فى سواد القلب بالحب ميعة
هى الموت أو كادت على الموت تشرف

وما ذكرتك النفس يابثن مرة
من الدهر إلا كادت النفس تتلف
والا اعترتني زفرة واستكانة
وجاد لها سجل من الدمع يذرف

وتحدثنا طويلا.. حتى غلب عليهما النوم، وفي الصباح جاءها غلام
من القبيلة بصحن فيه لبن فرآها نائمة وبالقرب منها جميل ومعهما
العجوز فسارع ليخبر أهلها فلقيته أختها وكانت تعلم بما حدث فعملته
عن غرضه، وبعثت بجارية لها لتنبه بثينة من الخطر الدايم، فأيقظتها
وطلبت بثينة من جميل سرعة الانصراف حتى لا يدركه القوم، فودعها
باكيا.. وهو يقول:

ألا أيها البيت الذي حيل دونه
بنا أنت من بيت وأهلك من أهلى
ثلاثة أبيات، فبيت أحبه
وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى
كلانا بكى أو كاد يبكى صباية
إلى إلفه واستعجلت عبرة قلبى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما
قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

وقد اشتكى زوج بثينة إلى أبيها وأخيها من محاولات جميل فى
الاقتراب من بيته ولقاء زوجته، فأرسلوا إلى جميل وعشيرته ينذرونه

ويتوعدونه ، فلامه أهله على ما يفعل وطلبوا منه نسيانها.. فأجابهم بأنه لا يستطيع ذلك.. حيث إنها:

غراء ميساء كأن حديثها در تحدر نظمه منثور
لا مثلها حسن ولا كدلالها دل ولا كوقارها توقير

فطلب أهله ، من ابني عمومته كان يأنس لهما أن ينصحا وأن يحاولا أن يرداه عن غيه.. وعندما فعلا ذلك رد عليهما باكيا:

لقد لامني فيها أخ نو قرابة
حبيب إليه في ملامته رشدي
وقال أفق حتى متى أنت هائم
ببثنة فيها قد تعيد وقد تبدى
أفى الناس أمثالى أحبوا فحبهم
كحبي أم أحببت من بينهم وحدي
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما
لقيت بها أم لم يجد أحد وجدى
إذا ما دنت زدت اشتياقا وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد

وقد مرت على جميل أيام وليالى عديدة لم يستطع فيها الذهاب إلى ديار بثينة ولا رؤيتها، فعزم أن يذهب إلى بلد بعيد لعل يكون فيه السلوى مما يعانيه، ورحل إلى الشام ومدح خلفاء بنى أمية فوصلوه

ومنحوه عطاياهم ، ولكن ظلت ذكرى بثينة لا تفارقه .. فعزم مرة أخرى
فى الذهاب إلى مصر وكان يسمع عن عبد العزيز بن مروان والى مصر
وأنة يحسن استقبال الشعراء ويبالغ فى إكرامهم فتحايل على لقاء بثينة
لوداعها.. وعندما انصرف عنها بكى وأنشد :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها يلذان فى الدنيا ويغتبطان
أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها لى الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ألا أهيم غيرها وقد وثقت منى بغير ضمان
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا شكاية معشوقين يشكيان
يعيشان فى الدنيا غريبين أينما أقاما وفى الأعوام يلتقيان

ووصل جميل إلى مصر وأحسن أميرها استقباله ، ولكن سرعان ما
مرض مرضا شديدا قضى فيه نحبه ، وأثناء مرضه لقاہ رجل من عشيرته
فحمله أمانة بعد وفاته وهى أن يلبس ثوبه ويركب ناقته .. ويمر بخيام
بثينة ويردد هذه الأبيات :

صرخ النعى وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
صرخ النعى بفارس ذى همة حلو الشمائل للرجال قتول
قومى بثينة فاندبى بعويل وابكى خليلك دون كل خليل

ونفذ الرجل الوصية .. وسار فى ديار بثينة يردد أبيات جميل ،
وسمعت بثينة ما يقول فسقطت مغشيا عليها ، وعندما أفاقوها أخذت
تبكى وتندب ومعها نساء القبيلة ثلاثة أيام .. وكانت تقول :

وإن سلوى عن جميل لساعة

من الدهر ما حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جميل بن معمر

– إذا مت – بأساء الحياة ولينها

واستمرت تردد هذين البيتين حتى قضى عليها الحزن واليأس..

وماتت!

رحم الله العاشقين

□□□

عروة وعفراء.. والموت غدراً

وفى عروة العذرى إن مت أسوة
وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند
وبى مثل ما نابيه غير أننى
إلى أجل لم يأتنى وقته بعد
هل الحب إلا عبرة بعد زفرة
وحرّ على الأحشاء ليس له برد

هذه أبيات لقيس ابن ذريح قالها فى شاعر محب آخر، كان يضرب به المثل، إنه الشاعر العذرى عروة ابن حزام من بنى غدرة، الذى مات شهيد العشق، بعد أن قتله الحب لابنة عمه عفراء، وكان أبوه قد مات وتركه وعمره أربع سنوات، فتولى عمه تربيته مع ابنته، فنشأ معها.. يلعبان.. ويكبران معا حتى ألفت كل منهما الآخر.

وكان عمه يبشره بأن عفراء زوجته إن شاء الله، وعندما بلغ عروة سن الزواج طلب من عمته أن تتوسط له لدى عمه وتخطب منه عفراء، فتردد الرجل فى الموافقة لأن عروة كان فقيراً، وكانت أم عفراء تكرهه وتتمنى أن تزوج ابنتها من رجل موسر، خاصة أن عفراء كانت جميلة وحسناً.. ويتمناها كثيرون.

وحاول عروة مع عمه وزوجته دون جدوى.. فقد كان حالهما من

حالته.. فقراء.. فلم يجد أمامه مخرجا سوى السفر إلى إيران لمقابلة ابن عم له موسر، لعل وعسى.. واصطحب معه رفيقين.. من أصدقائه بعد أن أخذ على عمه تعهدا بالألا يزوج عفراء من غيره..
وفى أثناء السفر كان عروة دائم التفكير.. قلقا.. مما قد تأتي به الأيام.. وكان يردد:

تحملت من عفراء ما ليس لى به
ولا للجبال الراسيات يدان
فيارب أنت المستعان على الذى
تحملت من عفراء منذ زمان
كأن قطاة عُلقت بجناحها
على كبدى من شدة الخفقان

واستمر فى هيامه.. وقلقه.. حتى أتى ابن عمه، فوصله وأكرمه وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها عائدا إلى أهله وقومه.
ولكن الرياح دائما تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد تصادف أن رجلا من الشام نزل فى حى عفراء، فذبح بعيرا ووزع لحمه على الناس، وكان ظاهر الثراء، وأثناء وجوده مع القوم لمح عفراء وهى حاسرة الوجه، فسأل عنها من هى، فعرض على أبيها خطبتها.. فأجابته بأنها مخطوبة لابن عمها، فعرض على الأم وزاد فى المهر فوافقت، أما عفراء فأخذت تبكى وتقول:

يا عروة إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وعندما أتى فى الليل زفت عفراء إلى زوجها ودخل بها، وأقام معهم ثلاثة أيام، ثم اصطحبها إلى الشام، وفكر أبوها ماذا يفعل مع ابن شقيقه عندما يعود، فاهتدى إلى قبر قديم فجدده وطلب من القوم أن يكتموا الخبر، ولما عاد عروة أخذ عمه يبكى وينعى إليه عفراء، وخُذع العاشق الولهان وكان يذهب إلى القبر ويلصق خده به ويبكى وينتحب، فرق لحاله بعض النسوة وأخبرنه بحقيقة ما حدث، وبعدهما تأكد من صحة ما أخبره.. قال:

فيا عم يا ذا الغدر ما زلت مبتلى
 حليفا لهم لازم وهوان
 غدرت وكان الغدر منك سجية
 فألزمت قلبى دائم الخفقان
 وأورثتنى غما وكربا وحسرة
 وأورثت عيني دائم الهملان

ولم يجد عروة بدا من الرحيل إلى الشام.. حيث عفراء.. لعله يحظى بنظرة.. فيشفى غليله ويهدأ باله ويرتاح قلبه، وسأل عن منزل زوج عفراء.. فوصله وأحسن الرجل استقباله وأكرم ضيافته.. وبعد يومين أو أكثر تحايل مع الخادمة حتى علمت عفراء بوجوده، وأخبرت زوجها بحقيقة ضيفه وأنه ابن عمها وحبيبها وخطيبها السابق، فعاتبه الرجل على كتمان سره وخرج وتركه مع زوجته يتحدثان، فلما خليا تبادلوا العتاب والشكوى من بعد الفراق، وبكىا وتعهد عروة بالرحيل خجلا

من الرجل الذى أكرمه ، وعندما حضر الزوج وعلم بنيته طلب منه البقاء
وعدم السفر، إلا أن عروة أصر ومضى عائداً إلى قومه.. وكان يردد:

بنا من جوى الأحزان والبعد لوعة
تكاد لها نفس الشفيق تذوب
وما عجبى موت المحبين فى الهوى
ولكن بقاء العاشقين عجيب

وما إن وصل إلى قومه حتى أصابه الخبل.. وأخذ يهذى فى كلام
ولا يفهم منه أحد ما يقول.. واشتد به المرض ونحل جسمه، فطاف
به أهله على عرافين فى منطقتى اليمامة والحجر ولكن دون جدوى..
وكان يسألهم هل عندهما للداء دواء أو رقية، وكانا يجيبانه بالنفى،
فانصرف عنهما.. وهو يقول:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف حجر إن هما شفيانى
فقالا: نعم.. نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقيانى
وقالا: شفاك الله، والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

وظل عروة على حاله من المرض.. والناس تعوده، والموت يروح ويغدو
بين عينيه، حتى فاضت نفسه.. إلى بارئها، وعندما علمت عفرأ بموته
استأذنت من زوجها وعادت إلى قومها.. وأخذت تندب عروة ثلاثة أيام
بجوار قبره وهى تقول:

فلا لقى الفتيان بعدك راحة ولا رجعوا من غيبة بسلام

ولا وضعت أنثى تماما بمثله ولا فرحت من بعده بفلام
وظلت على حالها تردد الأبيات وتبكي.. حتى فاضت روحها
ودفنت إلى جانبه..
رحم الله العاشقين.. وغفر لمن غدر بهما!

□□□

كثير وعزة.. قليل من الحب.. كثير من الشهرة

هذا الشاعر المحب.. كثير الخزاعي، سمي باسم محبوبته عزة الحاجبية، نظرا لكثرة ما قاله فيها من الشعر الغزلي، والطريف أنه كان شديد القصر، وكان البعض يستهزئ به لذلك، حتى إن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان يقول له عندما يدخل عليه: طأطأ رأسك حتى لا يصيبك السقف! ولكن كثير كان شديد الاعتداد بنفسه ويمشى في خيلاء وزهو، وكان يتحدى من يعايره بقصره بقوله:

وإن أك قصرا في الرجال فإنني إذا حل أمر ساحتني لطويل

المهم أنه كان شاعرا مجيدا مبدعا، ولكنه أيضا- كما قيل- كان في العشق منافقا.. متقولا مقارنة بالمجنون وجميل وعروة وغيرهم ممن أدمنوا العشق.. فماتوا فداء للمحبيب!

ولقد تعرف كثير بعزة أثناء مروره على خيام قومها متجها إلى السوق لبيع بعض غنمه، حيث أرسلتها بعض النسوة إليه لشراء كبش منه ووعدته بسداد ثمنه عند عودته، ولكنه استملحها ووقع حبها في قلبه، وعندما رجع وسأل عنها جاءت امرأة أخرى بدراهم ثمن الكبش، فأصر على رؤيتها قبل أن يأخذ دراهمه.. وهم بالانصراف وهو يقول:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه

وعزة ممطول معني غريمها

أى أن الحكاية ليست حكاية دراهم معدودات هو فيها من الزاهدين..
ولكنه العشق من أول نظرة..

نظرت إليها نظرة وهى شاخص
على حين أن شبت وبان نهودها
نظرت إليها نظرة ما يسرنى
بها حمر أنعام البلاد وسودها

وعندما سمعت عزة ذلك ظهرت له وتبادلا الحديث.. وأحبه بعد
ذلك أكثر بما شعرت أنه يحبها.

ولكن بمرور الأيام شعرت أنه ليس صادقا فى حبه، فأرادت أن
تمتحنه، فانتقبت ومرت به وهى تتمخظر فى مشيتها، فلم يعرفها وسار
خلفها يردد بعض كلمات الإعجاب، فوقفت وقالت له: وهل تركت
فيك عزة بقية لأحد؟ وأين قولك فيها:

إذا وصلتنا خلة كى نزيلها أبينا وقلنا الحاجبية أول

ولكنه سرعان ما وقع فى الفخ! حيث طلب منها أن تقصر كلامها
وتكف عن ذكر عزة، وأن تسمع ما يقوله فيها هى:

ما وصل عزة إلا وصل غانية فى وصل غانية من وصلها خلف
فكشفت عن وجهها وأسمعتة كلاما قاسيا واتهمته بالغدر والفسق،
واستشهدت بأشعار لجميل بثينة وكان صديقه الذى يقول فيه:

لحى الله من لا ينفع الود عنده ومن حبله إن مد غير متين

ومن هو ذو وجهين ليس بدائم على العهد حلاف بكل يمين
فأخذ كثير يعتذر إليها ويطلب السماح والعفو.. واصفا ما قاله بمجرد
كلمات جوفاء.. وأنها لا بد أن تصدقه وسألها: ألم تسمعي قولي فيك:

يزهدنى فى حب عزة معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى
ولا تسمع الأذان إلا من القلب

ولكنها لم ترض.. وانصرفت غاضبة، وبعد فترة عاودت الكرة وطلبت
من بثينة صاحبة جميل.. التخفى ومحاولة مراودة كثير.. إلا أن الأخير
كان منتبها وأسمع بثينة قوله:

رمتنى على عمد بثينة بعدما
تولى شبابى وأقبلن شبابها
بعينين نجلاوين لورقرقتهما
لنجم الثريا لاستهل سحابها
ولكنما ترمين نفسا مريضة
لعزة منها صفوها ولبابها
فضحكت بثينة.. وقالت له: نجوت.. يا كثير!

وتصادف أن تغيب كثيراً عن عزة فترة طويلة ذهب فيها إلى الشام
يمدح أمراء بنى أمية لعله يصيب منهم بعض المال يساعده على الزواج،
وفى تلك الأثناء تقدم لعزة فتى من قومها لخطبتها فوافقت.. ثم تزوجته
بعد أن طال غياب كثير وتشككها فى إخلاصه لها، وعندما عاد من
غربته وسمع بما حدث أنشد:

ما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشى بها العصم زلت

وحزن أشد الحزن.. وكان يخرج إلى الصحراء هائما على وجهه لعله
يستطيع السلوان، ثم تصادف أن ذهب إلى الحج، وكانت عزة وزوجها
يحجان أيضا، وطلب منها زوجها أن تبحث فى الخيام المجاورة عن
من يبيع سمنا لتعد طعاما له ولبن معهم، فأخذت تبحث وتساءل حتى
رأت كثيراً يقف بإحدى الخيام يبرى سهامها له، فلما رآها نسي نفسه،
وبرى إصبعه حتى سال منها الدم فجرت نحوه وأخذت تمسح دمه
بثيابها وسألها عما تبحث وحلف عليها أن تأخذ ما عنده من سمن
بالكامل، ولاحظ زوجها الدم بثيابها، وسألها عنه فأخبرته بما حدث،
فأخذها من يدها حتى وصلا مكان كثيراً وطلب منها أن تسبه فشتمته
وهى تبكى.. وكثير يعلم سبب بكائها ويقول:

يكلفها الغيران شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استندلت

هنيئًا مريئًا - غير داء مخامر - لعزة من أعراضنا ما استحلت
وقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت
وبعد العودة من الحج.. مرضت عزة مرضا شديدا، وعندما سمع كثير
بما أصابها ذهب ليسأل عنها وينشد:

يقولون سوداء العيون مريضة فأقبلت من أهلى إليها أعودها
فوالله ما أدري إذا أنا جئتها أبرئها من دائها أم أزيدها
إذا جئتها وسط النساء منحتها صدودا كأن النفس ليس تريدها
ولى نظرة بعد الصدود من الجوى كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها
ولكن عزة تعافت، ومرض كثير.. ومات.. وخرجت مع العديد
النسوة يبكيه ويندبنه.. وهن حزاني.



ديك الجن!

شاعر عربى كبير.. ينطبق عليه القول المأثور (ومن الحب ما قتل) فقد دفعه لهيب الحب وجنون الغيرة إلى قتل زوجته (ورد) وصديقه (بكر) بعد أن تعرض لمؤامرة من أقاربه، لا تختلف كثيرا فى تفاصيلها عما تعرض له عطيل وحبيبته (ديدمونة) ولكن شاعرنا المحب لم يكتف بذلك، بل صنع من رماد جسديهما كأسين لشرب الخمر! إنه الشاعر عبد السلام بن رغبان، الذى عاصر العصر العباسى ووصف بعطيل العرب، فقد كان متيما بفتاة حسناء شغفت قلبه حبا.. وكان يقول:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وقد توجت قصة الحب بينهما بالزواج على الرغم من اختلاف الديانة، وأهداها (زجاجة) من العطر صنعت خصيصا لها من قبل عطار مشهور بالشام، ولكنه قبل أن يسعد بصحبتها ويهنأ برغد العيش معها، اضطر إلى السفر لزيارة صديقه المريض بدمشق، فأخذ يودع حبيبته وزوجته.. وهو يقول:

ودعتها لفراق فاشتكت كبدى إذ شبكت يدها من لوعة بيدي
وحازرت أعين الواشين فانصرفت تعض من غيظها العناب بالبرد

فقد خفق قلبه وتألم كبده وهو يودعها، وهي ممسكة بيده وتعض بأسنانها على شفثيها من لوعة الفراق.

ولأن شاعرنا الذى لقب بديك الجن لفصاحته وذكائه وجمال أشعاره التى كان دائما ما ينشدها عند بزوغ الفجر، وقبل أن تصيح الديوك بمجيئه.. قد ورث مالا كثيرا عن أبيه كما كان مدمنا للخمر.. شديد الإسراف، ولم يكن له أشقاء، فقد طمع أبناء عمومته فى تلك الثروة وخشوا من ضياعها واستغلوا فرصة غيابه ودبروا مؤامرة للتخلص منه، ولأنهم يعلمون حبه الشديد لزوجته وغيرته المجنونة عليها، فقد طلبوا من ذات (العتار) الذى صنع زجاجة العطر للشاعر أن يصنع مثلها، وعندما علموا بقرب عودته من السفر، سارعوا بإهدائها لصديقه الحميم (بكر)، الذى فرح بها وتعطر منها، كما أعدوا له استقبالا خاصا، حيث جمعوا عددا من الأطفال وطلبوا منهم أن ينشدوا: ديك الجن.. سوف يجن.. ورد خانت ديك الجن.. واندعش الشاعر مما رأى وسمع ولذلك عندما التقى الصديقان واشتم الشاعر رائحة العطر الذى أهدها لزوجته على ملابس صديقه ساورته الظنون واعتقد أنه يخونه فبادر بقتله، ثم سارع إلى زوجته وقتلها أيضا وهو يقول:

أيها القلب لا تعد لهوى البيض ثانية
خنت سرى ولم أحنك فموتى عـلانـية!

وعندما حضرت خادمته وفوجئت بما حدث، حاولت إفهامه الحقيقة.. وأنه تعرض لمكيدة خبيثة من أبناء عمومته، وأن صديقه وزوجته بريئان

مما ظنه بهما، وأحضرت له زجاجة العطر التي أهداها لزوجته فوجدها مغلقة ولم تستعمل من قبل، كما وجد زجاجة أخرى في ملابس صديقه.. وعندما تكشفت له الحقائق كاملة.. أخذ يبكي ويصرخ.. لائما نفسه على ما جنت يده.. محاولا الانتحار ولكن الخادمة منعتة من ذلك، فطلب منها أن تروى قصته للناس بعنوان (عاشق ورد وقاتل صديقه).. وبعد أن هدأت نفسه.. أحضر الجثتين وحرقهما كلا على حدة، وصنع منهما كأسين مختلفين، وبدأ يتجرع منهما خمرا ممزوجا بالمرارة والعذاب وقلبه ينزف شعرا باكيا.. تتغنى به النائحات فى المآتم وسافحات الدمع عند القبور، وكان عندما يبدأ فى شرب الخمر.. يحضر الكأسين فى مجلسه، واضعا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره.. وتارة ينظر إلى الكأس المصنوع من رماد زوجته وهو يقول:

يا طلعة طلع الحمام عليها

وجنى لها ثمر الردى بيديها

رويت من دمها الثرى ولطالما

روى الهوى شفتى من شفيتها

ثم تارة أخرى ينظر إلى الكأس المصنوع من رماد صديقه..

قائلا:

وقتلته وله على كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره

عهدى به ميتا كأحسن نائم والحزن يسفح عبرتى فى نحره

وقضى حياته محزونا مكتئبا باكيا.. وكثيرا ما كان يرد على معاتبه

لكثرة بكائه مع سوء فعلته.. يقول:

ويعذلنى السفيه على بكائى
كأنى مبتلى بالحزن وحدى
يقول قتلتها.. سفها وجهلا
وتبكيها بكاء ليس يجدى
كذباح الطيور له بكاء
عليها وهو يذبحها بحد

والغريب أن ديك الجن هذا رغم فداحة فعلته.. له أشعار فى غاية
الرقة والجمال.. وتكشف عن نفس غارقة بالإيمان.. ومنها:

الخلق ماضون والأيام تتبعهم
تفنى ويبقى الإله الواحد الصمد

كما أنه محب لآل البيت متشيع لهم، ومما قاله فيهم:

يا صفوة الله فى خلائقه وأكرم الأعجمين والعرب
أنتم بدور الهدى وأنجمه ودوحة المكرمات والنسب

نعم كان متدينا.. وإنما كان أيضا محبا وعاشقا غيورا، لكنها غير
مجنونة، وحب قاتل.. ومن الحب ما قتل!

وهذا الشاعر لم يأخذ حقه من الشهرة التاريخية رغم جمال أشعاره
وهناك من تغنى بها كبار المطربين مثل ناظم الغزالي- العراق- وعبد
الكريم الكابلي- السودان- ومنها أيضا ما تحول إلى مقولات تاريخية

يستشهد بها البعض فى المناسبات .. مثل :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق
وأياها :

تعترف النفس ببعض القوى فأمسك النفس ببعض الخداع

ولكن مشكلة شاعرنا عبدالسلام بن رغبان.. أنه كان مدمنا للخمر..
مبذرا.. وقد ورث عن أسرته أموالا كثيرة.. وتربى فى حضان جده
وجده لأبيه.. والتي وضعت فى نفسه بذرة الشك من النساء.. وفهمته
ألا يأمن لأية امرأة.. وإن كانت زوجته!

وكانت شدة إسرافه فى أموال العائلة سببا فى إثارة غضب أبناء
عمه منه وطمعهم فيها وخوفهم من ضياعها.. فكادوا له كما فعل أخوة
يوسف.. ومنهم الشاعر المعروف أبو الطيب المتنبى.. الذى اتهمه
بالزندقة والفجور وأخذ يردد عنه ما قيل أنه من أشعاره:

أترك لذة الصهباء عمدا لما وعدوه من لبن وخمر

وعندما علم شاعرنا بما يردده عنه ابن عمه أبو الطيب هجاه بشعر
قاس :

يا عجبا من أبى الخبيث ومن سوجه.. فى البكائر الدثرة
سيحان من يمسك السماء على الأرض وفيها أخلاقك القذرة

المهم أن الخلاف بينهما انتهى بالخدعة.. والمؤامرة التى كانت
نتيجتها قتله لصديقه وزوجته.. والتي قال فيها من قبل:

يأبى فم شهد الضمير له قبل المذاق بأنه عذب
كشهادتى لله خالصة قبل العيان.. بأنه رب

وأيا:

والخال فى الخد إذ أشبهه وردة مسك على ثرى تبر
وكذلك:

عفرت خدى فى الثرى طائعا وعزمت فىك على دخول النار!
بل حتى بعدما قتلها.. أخذ يرثيها بأشعار تذيب الدمع الجسور
ومنها:

ما كان قتلها لأنى لم أكن أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها وأنفت من نظر الحسود إليها
كما قال أيضا نادما متعذبا:

قال ذو الجهل قد حلمت ولا أعلم أنى حلمت حتى جهلت
لائم لى بجهله.. ولماذا أنا وحدى أحببت ثم قتلت؟

رحم الله شاعرنا الكبير «ديك الجن» الذى وراه التراب وبقي لنا
شعره نستمتع به ونرويه فى الملمات والمناسبات.

□□□

ليلى الأخيلية.. عشيقة توبة

نالت من الشهرة حقها، لأنها كانت شاعرة مجيدة، ولأنها أحببت ابن عمها الشاعر والفارس توبة الحميرى، ولم يتزوجها وظلا متحابين حتى ماتا على حبهما، إنها ليلى بنت عبد الله الرحال المشهورة بليلى الأخيلية وهو لقب لجدها من قبيلة بنى عامر التي اشتهرت بالحب العذرى بين أبنائها!

لقد رفض أبوها أن يزوجها من توبة بعد أن ذكرها فى شعره، وهى عادة قديمة لدى العرب تسمى «التشبيب»، وزوجها لرجل من بنى الأذلع وكان غيورا، فى الوقت الذى لم يمتنع توبة عن زيارتها، فأخذ بنو الأذلع يترصدون له وعلمت ليلى بذلك فخرجت للقاءه سافرة وعندما رآها على حالها علم أن القوم يريدونه فأسرع بالهرب.. ومما قاله فى ذلك:

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها
وكننت إذا ما جنئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها

ولم يجد زوجها حيلة معها غير طلاقها، فزوجها أبوها من آخر هو سواز القشيرى الملقب بابن الحيا، وكان شاعرا مخضرا من الصحابة وقد أنجبت منه العديد من الأولاد.

وقد اشتهرت ليلى فى عصرها (الأموى) وعرفت الخلفاء والأمراء، وكانت جميلة وشجاعة.. فخورة بنفسها وقومها:

نحن الأخاييل لا يزال غلامنا حتى يدب على العصا مشهورا
تبكى الرماح إذا فقدت أكفنا جزعا وتعرفنا الرفاق بحورا
وتحكى كتب السيرة أنها دخلت على معاوية ابن أبي سفيان،
فسألها عن توبة الحميري، فقالت: كان يا أمير المؤمنين سبط البنان،
حديد اللسان، نسجا للأقران، كريم المخبر، جميل المنظر، ثم أنشدت:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره
ألد بما قد يغلب الحق باطله
إذا حل ركب فى ذراه وظله
ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهم بنصل السيف من كل فادح
يخافونه حتى تموت خصائله

وكان توبة قد قُتِلَ فى غزوة له على بنى عوف، حيث استولى على
إبل لهم من راعيها، فلحقوا به وقتلوه وقطعوا رجل شقيقه ولهذا عندما
استمع معاوية لشعر ليلى فى توبة قال لها: ويحك! لقد كان عاهرا
خاربا، فردت عليه:

معاذ إلهى كان والله سيدا
جوادا على العلات جما نوافله
عفيفا بعيد الهم صلب قناته
جميلا محياها قليلا غوائله

يبيت قرير العين من بات جاره

ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فعقب معاوية: ويحك يا ليلي، لقد جزت بتوبة قدره، فقالت: والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أنى مقصرة فى نعته وأنى لا أبلغ منه ما هو أهله، فسألها: من أى الرجال كان؟ فقالت:

أنته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يطاوله
وكان كليث الغاب يحمى عرينه وترضى به أشب اله وحلائله
غضوب حلیم حين يطلب حلمه وم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر الخليفة لها بجائزة عظيمة، وقال لها: خبرينى بأجود ما قلت فيه من الشعر، فقالت: ما قلت إلا ما فيه من خصال:

جزى الله خيرا والجزاء بكفه فتى من عقيل ساد غير مكلف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه ولا ينفك جم التصرف

وقد دخلت ليلي ذات مرة على الحجاج بن يوسف أمير العراق فى عهد الوليد بن عبد الملك، فمدحته طمعا فى عطائه، وقالت:

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة

تتبع أقصى دائها فشفاهها

شفاهها من الداء العضال الذى بها

غلام إن هز القنائة سقاها

سقاها دماء المارقين وعلَّها
إذا جمحمت يوما وخيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة
أعد لها قبل النزول قراها

فقال لها الحجاج ألا تقولين : همام بدلا من غلام ! وأمر لها بخمسمائة درهم وخمسة أثواب وخمسة جمال ، فأنشدت مرة أخرى :

حجاج أنت الذى لا فوقه أحد
إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت سنان الحرب إن نهجت
وأنت للناس فى الداجى لنا تقد

فزادها الحجاج من عطايه وقال لها أنشدينا ما قلت فى توبة :
فأنشدته قولها :

فتى كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر
أنته المنايا دون درع حصينة وأسمر خطى وجرداء ضامر
فنعم الفتى إن كان توبة فاجراً وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

فقال لها الحجاج مداعبا : ألم يكن بينك وبينه ريبة قط أو خاطبك
فى ذلك؟ فقالت : لا والله يا أمير إلا أنه قال لى ليلة وقد خلونا كلمة
ظننت منها شيئا فقلت له :

وذى حاجة قلنا له لا تبع بها فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارغ وحليل
ثم أكملت: والله ما سمعت بعدها منه ريبة حتى فرقنا الموت، فقال
لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك، قالت: وجه صاحبها له إلى خيامنا
فقال: إذا أتيت خيام ليلى فاهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها
فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى وأجابت عليه:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها
ومزت الأيام والشهور وتصادف أن مرت ليلى مع زوجها على قبر
توبة وهي فى هودج لها، فقالت والله لا أبرح حتى أسلم على توبة،
فحاول زوجها منعها من ذلك، ولكنها أصرت وصعدت على تبة مرتفعة
عليها القبر وقالت: السلام عليكم يا توبة ثم حولت وجهها إلى من معها
وقالت: ما عرفت له كذبة قط قبل هذا، قالوا: وكيف؟ قالت: أليس
هو القائل:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ألا كل ما قرت به العين صالح

وأكملت : فما باله لم يسلم على كما قال ! وكانت بجانب القبر بومة
فلما رأَت الهودج فزعت وطارت في وجه الجمل ، فنفر فرمى بليلى على
رأسها ، فماتت ودفنت إلى جانب حبيبها !



فَوْزُ وَالْعَبَّاسِ.. الْحُبُّ وَالشُّكُّ

أستغفر الله إلا من مودتكم فإنها حسناتى يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية فالحب أحسن ما يعصى به الله!

قائل هذه الأبيات هو الشاعر البغدادي العباس بن الأحنف وكان شاعرا غزليا لا يهجو ولا يفتخر، رافق الخليفة العباسي هارون الرشيد فى بعض غزواته فى خراسان وغيرها من البلاد التى فتحها العباسيون، وأحبه وزراء الخليفة وقائدو جيشه.. وعلى رأسهم محمد ابن المنصور والذى كان يدعو الشاعر إلى منزله حيث يتجمع عنده الأدباء والشعراء.. وتقف على خدمتهم جاريته المفضلة (فَوْزُ) التى كانت تحفظ الكثير من الشعر وأخبار العرب السابقين، ووقع الشاعر فى حبها.. وتملكه هواها من أخصم قدميه وحتى شعر رأسه.. بينما هى تتمنع وتتدلل ومن ثم كان كثير الشكوى والاستعطاف.

وقد طلب منه محمد بن المنصور فى أحد مجالسه أن يصف لهم الحب بعدما لاحظ علاماته عليه.. فأنشد العباس:

الحب أول ما يكون لجابة تأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا سلك الفتى لجاج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها رأيت عينا للبكاء تُعار

فاستحسن الحاضرون وصفه للحب.. وأشفقوا عليه وعرض عليه بعضهم أن يعيره عينه ليبيكى بها من شدة ما يعانيه من الوجد فقد سمعوه وهو يخاطب محبوبته :

أميرتى.. لا تغفري ذنبي فإن ذنبي شدة الحـب
حدثت قلبي دائما عنكى حتى قد استحييت من قلبي

ولم يكن يهمه الوقت.. ساعاته وأيامه وشهوره، فالهم عنده أن يرى وجه محبوبته، وكان دائما ما يناشدها أن تأذن له بزيارتها فهي الداء والدواء، وأن تغفر له شدة نظراته التي تعبر عن شوق ومحبة، ولكنها تصدر عن ضمير عفيف :

اليوم مثل العام حتى أرى
وجهك، والساعة كالشهر
أتأذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

ولم تجب «فَوْزٌ» ولم تصل وده.. فاضطر إلى أن يكتب لها بعض أبياته على ورقة وأرسلها لها :

وسعى بها ناس فقالوا إنها هى التى تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إنى ليعجبني المحب الجاحد

وعندما وصلتها رقعة الورق.. رقت له فوز وأخبرت رسوله بالموعد،
وعندما التقته عاتبته على ما يقوله عنها في أشعاره.. فهي تخشى
الفضيحة والتشهير كما تخشى عليه أن يمنعه سيدها من حضور
مجلسه.. فاستمع إليها في صبر ثم أنشد:

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى
نمّ دمعى فليس يكتّم شيئا ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

وقضيا معا وقتا ليس بالطويل.. ثم استأذنت في الانصراف.. وغابت
عنه مدة لم يرها ولم تراسله، وكان العباس شكاكا شكاءا مثل كل
المحبيين.. فأرسل لها أبيات من الشعر يقول فيها:

أؤملكم حتى إذا ما رجعتما
أتانى صود منكم وتجنبوا
فإن ساءكم ما بى من الصبر، فارحموا
وإن سرکم هذا العذاب، فعذبوا
وقد ظهرت أشياء منكم كثيرة
وما كنت منكم مثلها أترقب
عرفت بما جربت أشياء جمّة
ولا يعرف الأشياء إلا المجرب

وردت «فوز» على الرسول بالعتاب.. وأن العباس دائما ما يذكرها

بالسوء وأنها أحبت فتى من الجند، وهذا شأنها وليس عليها سلطان من أحد، فحزن العباس لما سمع ومرض.. وطال مرضه.. وعندما تعافى خرج مع غلامه إلى الخلاء واستلقى تحت شجرة.. وهو ينشد:

يا سقيم الجسم من محنه مفردا يبكى على شجنه
كلما جد البكاء به دببت الأسقام فى بدنه
وأغمى عليه.. وعندما أفاق وفتح عينيه وجد طائرا يغرد على
الشجرة.. فقال:

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكى على فنه
شفه ما شفى فبكى كلنا يبكى على سكنه
ثم أخذ نفسا عميقا فاضت معه روحه فحمله غلامه إلى المنزل وجهزه
وواراه التراب فى جمع غفير من الأصدقاء والمحبين.



سلامة والناسك!

هذه قصة أخرى من قصص الحب العذرى.. حيث العشق الجميل والغزل العفيف، ولكن طرافتها في أن العاشق الولهان هذه المرة كان ناسكاً متعبداً زاهداً في حطام الدنيا، متعمقا في رواية الحديث النبوي مداوماً على قراءة القرآن الكريم.. ولكن لم يكن قلبه معه! وانطبق عليه القول «جاء هواها فصادف قلباً خالياً.. فتمكنا»..
أو كما قال آخر معاتباً من أغرته:

يا أم عمرو ماذا فعلت بناسك متوكل متعبد
قد كان شمر للصلاة بساعد لولا وقفت له بباب المسجد

إنه الحب.. أو العشق أو الهوى.. سمه كما شئت وإن لم تعرفه وتجربه فكأنك من حجر جامد من صخر يابس، فالبعض يهوى محبوبته ولا يقاوم لقاءها، كما يشتهي العطشان في الصحراء.. الماء البارد الثلج. ويقول الشاعر الأحوص:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
وإني لأهواها وأهوى لقاءها
كما يشتهي الصادى الشراب المبردا

فلقد أحب الناسك المشهور بالتقوى والورع بالمدينة المنورة في فترة

حكم الأمويين عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي والذي اشتهر فيما بعد بالقس، أحب المغنية سلامة والتي اشتهرت في تلك الفترة بقراءة القرآن وتلاوة الأشعار، ثم انتقلت إلى الغناء مع شقيقتها ريا، وكان مجلسهما يجمع الشعراء وكبار القوم، وكما فعلت الأديبة مى.. مع كبار الكتاب والشعراء حيث أحسنت معاملتهم جميعا، وكانت ودودة مع الجميع فأحبوها كلهم، فعلت مثلها المغنية سلامة فقد أحسنت التعامل والود مع الجميع فشغف بها كل من رآها وسمعها.

وتصادف أن كان القس عبد الرحمن يسير في المدينة فسمع غناء سلامة فاستحسنه وفتن به، ثم داوم على التردد واسترقاق السمع ورآه صاحب المنزل وعرض عليه الدخول فأبى وتمنع ولكنه أقنعه بالجلوس في مكان يراها منه وهي لا تراه، فدخل فعلا واستمع لغنائها، ثم عرض عليه صاحب المنزل أن يناديها ليحدثها ويسمع منها فتخرج من ذلك في البداية.. ولكنها جلست أمامه وهي تضرب على العود وتغنى.. وسرعان ما تعلق بها.. ووقع هواها في قلبه وتحول إلى شاعر غزل.. وكان يعطيها شعره لتغنيه.. ومما قاله :

سلام هل لى منكم ناصر أم هل لقلبى عنكم زاجر
قد سمع الناس بوجودى بكم فمنهم اللائم والعاذر

وبمرور الوقت وتعدد اللقاءات تعلقت به سلامة وبادلته حبا بحب.. وانتشرت الأخبار.. وشاعت العلاقة بين الناس وأطلقوا عليها سلامة القس.. وعاتبوه كيف هو الرجل التقى الورع يقع في حب مغنية مثل

سلامة.. فكان يرد عليهم قائلا:

قالوا: أحب القس سلامة وهو التقى الورع الطاهر
فقلت: لي كبد كأكبادكم ولي فؤاد مثلكم شاعر

وقد تأثر القس بما كانوا يقوله الناس عنه، إلى جانب حبه ووجده
بسلامة.. وبدأت تظهر عليه علامات الإجهاد والنحول.. لأنه لم يكن
يحب حبا عاديا كله سعادة وفرح وسرور.. وإنما حبا طاهرا تقيا كله
حرمان وألم وضنى وشقاء وكان دائما ما يقول لمحبيوته:

أهابك أن أقول بذلت نفسي ولو أنى أطيع القلب قالاً
حياء منك حتى سُلَّ جسمي وشق عليّ كتمانى وطالاً

من جانبها كانت سلامة تتساءل عن مصير هذا الحب فكلمها ظنت
أنها أوشكت على النهاية.. مثل كل المحبين.. يتراءى لها فجأة أنه
يبعد عنها ويبعدها عنه، وعندما كان يلتقيان.. يتبادلان حديثا عاما
ويقدم له بعض أشعاره:

سلام ويحك هل تحبين من ماتا

أو ترجعين على المحزون ما فاتا

أو قوله فى مناسبة أخرى:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر

وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

وفى أحد اللقاءات اضطرت لصارحته : أنها والله تحبه فيرد عليها :
وأنا والله أحبك ، فتنشجع وتقول : وأنا أشتى أن أعانقك ، ويجيبها
وأنا كذلك ، فتسأله : وما يمنعك؟ .. وأن المكان خال .. ويجيبها : يمنعني
أن أنعم بحبك فى الدنيا وأشقى به فى الآخرة فتكون يوم القيامة ممن
قال عنهم الله ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ،
ثم ودعها منشدا :

باتت تعلننا وتحسب أننا فى ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الصباح لناظر فإذا بذلك بيننا أحلام
ويعود القس إلى زهده وتقشفه وقراءته للقرآن وروايته للأحاديث ، وتستمر
سلامة فى غنائها وإمتاع مستمعيها بصوتها وأشعار القس .. الزاهد!



ذو الرُمة.. الشاعر العاشق

إذا كان الشعر العربي الجاهلي قد بدأ بالملك الضليل امرؤ القيس، فقد ختم بهذا الشاعر العاشق غيلان بن غصة من بني عدى (موطن الحب العذرى وأبطاله المشهورين)، والذي اشتهر بلقب (ذو الرُمة)، وتروى كتب السيرة لهذا اللقب ثلاثة تفسيرات، أحدها ما قاله الشاعر نفسه يصف وتدا عليه قطعة بالية من الحبل: «أشعث باقى رمة التقليد»، والثانية أنه وهو غلام كان يتفزع وهو نائم، فذهبت أمه لمقرئ القبيلة فكتب له ما يشبه «الحجاب» فى قطعة من الجلد الغليظ، وعلقته أمه فى رقبته بحبل فسمى ذا الرمة، أما التفسير الثالث فقول إن حبيبته مية التى شغقت قلبه حبا هى التى لقبته بذلك حين ألم بخيمتها يطلب ماء، وكان على كتفه رُمة (حبل قديم)، فلما أحضرت الماء ولم تكن تعرف اسمه، قالت له: اشرب يا ذا الرُمة!

وقد وصف شاعرنا بأنه كان ظريفا حسن الحديث حلو المنطق، مع أنه كان قصيرا دميما، كما وصفت مية بأنها كانت خميرة اللون عذبة الكلام، وكانت بنت زعيم إحدى القبائل من تميم.

وقصة معرفته بمية بدأت بخروجه وأخيه وابن عمه للبحث عن إبل ضلت العودة من مرعاها، حيث يقيمون بشرق الجزيرة العربية بالقرب من عشيرة مية، وعندما شعروا بالعطش طلب منه رفيقاه أن يأتيهما بماء، فذهب إلى الخيمة القريبة من طريقهم.. فتعرف بمية التى أعطته

ما أراد وتحديثا قليلا، ولكنه قد وقع في هواها وعلق قلبه بها، وحكى ما حدث لأخيه وابن عمه فتضحكا معه وتعجبا له.

ولكنه لم يتوقف وعاود الزيارة، حيث اللقاء والحديث الطويل ولم يكن يأبه بما يتحملة من شقة.. بل كان يسعد بذلك كثيرا.. حيث قال:

وكننت إذا ما جنئت ميا أزورها
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليساها
إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها

وكان لذى الرمة صديق يسمى عقبة بن مالك.. كان يصطحبه معه عندما يعلم أن رجال العشيرة قد خرجوا منها سواء للرعى أو للحرب، وفى إحدى الزيارات تجمعت حولهما نسوة القبيلة وطلبن من ذى الرمة أن ينشدهن من شعره، فطلب من صديقه أن ينشدهن نيابة عنه فأنشدهن من شعر ذى الرمة قوله:

وقفت على ربع لمية ناقتى فمازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه
فأسبلت العينان والقلب كاتم بمغرورق نمت عليه سواكبه

فقال ذى الرمة: ما أصحه وهنيئا له، فتنفس ذو الرمة نفسا حارا كادت تنهمر بسببه دموع الحاضرات من النسوة!، واللاتى تحركن بعيدا عنهما ومعهن رفيقه، فبدأ ذو الرمة يشكو لها حبه وشدة تعلقه بها، وهى

تناكفه وتدعى عليه أنه غير صادق فيما يقول.. وزاد تأثره وذرفت دموعه
وأخذ ينشد ويقول:

ولما شكوت الحب كيما تشيبنى
بوجدى قالت إنما أنت تمزح
بعادا وإزالا على وقد رأت
ضمير الهوى قد كان بالجسم يبرح
لئن كانت الدنيا على كما أرى
تباريح من ذكراك فالموت أروح

فرقت له ودخلت إلى خيمتها وجاءته بقاروة عطر وقلادة، فأهدتهما
إليه تعبيرا عن مودة وحب.. وودعها وعاد مع رفيقه إلى دياره.
ولكن مشكلته أن أباه كان من أشرف العرب.. ومن ثم فقد تردد
كثيرا فى التقدم لخطبتها، وعندما تقدم إليها فتى من عشيرتها وافق
أباه وزفت إليه، ولما علم ذو الرمة بذلك اصطحب بعضا من رفقاءه
محاولا رؤيتها وهم يمنعون عن ذلك وينصحونه بنسيانها وقد وصف
قولهما بشعره حيث أنشد:

أما أنت عن ذكراك مية مقصر
ولا أنت ناسى العهد منها فتذكر
تهيم بها ما تستفيق ودونها
حجاب وأبواب وستر مستر

ولكنه أصر أن يذهب إلى حيث تقيم، وتصادف أن حاول ذلك في ليلة ظلماء على أمل ألا يتعرف عليه زوجها، ولكنه عرفه ولم يدخله البيت وأخرج إليه الطعام بالخارج، وعندما وجد نفسه وحيدا حاول التغنى بأشعاره لعل مية تسمعه فتخرج إليه.. فقال:

أراجعة يا مى أيامنا الألى بذى الأثل أم لا ما لهن رجوع

لقد حاول تذكيرها بلقائهما بموقع ذى الأثل لعلها تلين وتلتقيه، ولكن زوجها سمعه وغضب وطلب من مية أن تصيح فيه وتشتمه وتطرده وإلا ضربها بالسيف وقضى عليها، ففعلت بما أمرت، فرحل غاضبا باكيا.. ولم يستطع نسيانها فأصابه المرض وسرعان ما حضرته الوفاة. وقد ترك ذو الرمة ديوانا ضخما من الشعر أغلبه فى الوصف وخاصة الصحراء التى كان عاشقا لها مقيما فيها، وكان يتميز بطول القصائد.. ومنها قصيدته الشهيرة التى يصف فى بدايتها دموعه.. وكأنها مياه تسقط من قربة مقطوعة.. حيث يقول:

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كلى مفريية سكب

استحدثت الركب عن أشياعهم خبرا

أم راجع القلب من أطرابه طرب

وكذلك قصيدته الشهيرة التى تصل إلى ثلثمائة بيت «يا دار مية بالخلصاء».. والتى يقول فيها:

قد هجت يوم اللوى شوقا طرفت به
عيني فلا تعجمى من دونى الخبرا
يقول بالزرق صحبى إذ وقفت بهم
فى دار مية استسقى لها المطرا
لو كان قلبك من صخر لصدّعه
هيجُ الديار لك الأحزان والذكرا
وها هو يخاطب ربه الذى يعلم بحاله أن يفرج كربه ، وإن فاضت
روحه يبعده عن النار ويدخله جنته ..

يارب قد أشرفت نفسى وقد علمت
علما يقينا لقد أحصيت آثارى
يا مخرج الروح من جسمى إذا احتضرت
وفارج الكرب زحزحنى عن النار

□□□

المنخل اليشكرى .. ضحية العشق الحرام

ودفعتُها.. فتدافعت مشى القطة إلى الغدير
وأحبها.. وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

أعجبنى هذان البيتان للشاعر الجاهلى المنخل اليشكرى.. ودفعانى للبحث عن قصة قائلهما وأشعاره الأخرى.. فاكشفت أنه صاحب مأساة يجب أن تروى للأجيال الجديدة.

وكانت البداية مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان يحب الشاعر النابغة الذبياني واتخذة نديما له، وتصادف أن شاهد النابغة زوجة النعمان مارية بنت الأسود والتي اشتهرت بـ «المتجردة» وكانت شديدة الجمال وصاحبة حسن ودلال.. حيث سقط أحد أزوار ثوبها فمالت إلى الأرض تلتقطه.. وشاهدها الشاعر.. فأنشد:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص البنان كأنه عنقود من فرط الحلاوة يعقد
نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

فى تلك الفترة أيضاً التحق الشاعر المنخل اليشكرى بمعية الملك النعمان.. ولكنه لاحظ أن الأخير يفضل النابغة عليه.. فسعى ضده ووشى به وأسمع الملك ما قاله عن زوجته وهو ما يعتبره العرب تشبيها غير مقبول.. وشعر النابغة بما يحاك ضده فهرب إلى الشام، حيث

الفزازين الذين كلموا النعمان فيه فعفا عنه واضطر النابغة للاعتذار بقصيدة مشهورة بدايتها: يادار مية فالعليا فالسند..

أما شاعرنا المنخل وكان فتى عتياً جميلاً الوجه حسن الطلعة.. فقد خلى له المكان.. ووقع في حب المتجردة زوجة النعمان.. التي بادلتها حبا بحب.. وتهامس القوم حول العلاقة.. حتى إنهم كانوا يتهامسون بأن أولاد المتجردة من النعمان يشبهون المنخل اليشكري.

وبالطبع وصلت تلك الهمسات إلى النعمان.. فأمر بالقبض عليه وتسليمه إلى مسئول سجنه يسمى عكب وأمره بتعذيبه وإحراق جثته وأن يذرى رمادها في الرياح حتى لا يتعرف أحد على مكان قبره، وقبل أن يلقي المنخل حتفه ناشد قومه أن يأخذوا بثأره ممن قتلوه.. وفي هذا قال:

ألا من مبلغ الحيين عنى بأن القوم قد قتلوا ألبيا
وإن لم تتأروا لي من عكب فلا رويتم أبداً صديا

والمشكلة أن النعمان لم يكتف بقتل المنخل وإحراق جثته، بل أصدر أمراً بأن كل من يذكر المنخل أو يردد قصائده يوقع عليه نفس الجزاء، وقد نجحت خطة النعمان في القضاء على كل أثر لهذا الشاعر باستثناء قصيدة «فتاة الخدر» بل إنه أصبح مضرب المثل فيمن يذهب ولا يعرف مصيره.

وقد قال الشاعر ذو الرمة في ذلك:

تقارب حتى تطمع التابع الصبا وليست بأدنى من إياب المنخل

وكذلك الشاعر النمر بن تولب :

وقولى إذا ما أطلقوا عن بغيرهم تلاقونه حتى يؤوب المنخل

أما قصيدته «فتاة الخدر» فقول إنه قالها فى هند بنت عمر شقيقة الملك عمرو بن هند، وقيل إنها هند بنت النعمان وكانت شديدة الجمال.. والراجح أنها فى الأولى، حيث حفظها الرواة قبل أن يلتحق المنخل بديوان الملك.. ويلقى حتفه هناك.

والقصيدة يعدها النقاد من عيون الشعر العربى لجزالة ألفاظها ووضوح معانيها ولغتها الشعرية الراقية وإيقاعها الموسيقى الجميل، وقد استلهم معانيها وصورها الموحية شعراء كثر منهم وضاح اليمن وعمر بن أبى ربيعة وحديثا على الجارم.

والقصيدة من ثلاثة مقاطع، الأول منها يحكى عن شجاعة الشاعر وقومه وكلهم من فرسان الخيل الملازمين لظهورها مرتدين لدروعهم استعدادا للإغارة على الأعداء.. وينتهى هذا الجزء بإشادة الشاعر بنفسه، حيث يقول إذا حل الجذب وجدتنى أدور بقدر على كل من فى البيت قريبا أو غربا:

وإذا الرياح تناوحت بجوانب البيت الكسير
ألفيتنى هـش الـيدين بمر قدحى أو شجـيرى

ثم يأتى المقطع الثانى.. وهو أساس القصيدة، حيث يدخل على فتاته فى مخدعها فى يوم مطير.. ويصفها.. ثم يحكى ما دار من حديث بينهما وأن حبه لها من العمق حتى أن ناقتها - بالعدوى - حبت جملة:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء ترفل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها.. فتدافعت مشى القطة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست كتنفس الظبى الغرير
فدنت.. وقالت: يا منخل ما بجسمك من حرور؟
ما شف جسمى غير جسمك، فأهدئنى عنى وسيرى
وأحبها.. وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

ويختم الشاعر قصيدته بما يسمى بخيالات النشوة، واصفاً حاله
وحال الشعراء جميعاً عندما يجنح بهم الخيال، فيتصور نفسه الملك
النعمان صاحب قصر الخورنق وسرير الملك، وعندما يفيق من الخمر يعود
لطبيعته.. شاعراً فقيراً لا يملك سوى شاة وبعير.

يارب يوم للمنخل، قد لها فيه قصير
ولقد شربت الخمر بالخيال الإنان وبالذكور
ولقد شربت الخمر بالعبد الصحيح وبالأسير
ولقد شربت من المدامة بالصغير والكبير
فإذا انتشيت فإننى رب الخورنق والسرير
وإذا صحت فإننى رب الشويهة والبعير
يا هند من لتيم يا هند.. للعانى الأسير؟

□□□

المحتويات

● الجزء الأول: هؤلاء الشعراء

٨ امرؤ القيس
١٢ النابغة
٢٦ ليبيد بن ربيعة
٣٠ أعشى قيس
٣٥ عمرو بن كلثوم
٣٩ كعب بن زهير
٤٤ طرفة بن العبد
٤٩ عامر بن الطفيل
٥٥ دريد بن الصمة
٦١ معن بن أوس
٦٥ المهلهل
٦٩ العباس بن مرداس
٧٤ النابغة الجعدي
٧٨ الحطيئة
٨٢ الفرزدق
٨٧ جرير
٩٢ الأخطل

- يزيد بن معاوية ٩٦
- أبو تمام ١٠١
- أبونواس ١٠٦
- البحترى ١١٥
- أبو العتاهية ١١٩
- مسلم بن الوليد ١٢٤
- ابن المعتز ١٢٨
- ابن الرومي ١٣٣
- المتنبى ١٣٨
- أبو فراس الحمداني ١٥٦
- الحلاج ١٦٢
- عمر الخيام ١٦٧
- الجزء الثانى: مع العشاق
- عنتره وعيلة ١٧٧
- عمر بن أبى ربيعة ١٨٢
- قيس بن الملوح ١٨٦
- قيس ولبنى ١٩٩
- جميل وبثينة ٢١٤
- عروة وعفراء ٢٢٤
- كثير وعزة ٢٢٩
- ديك الجن ٢٣٤

- ٢٤٠ ليلى الأخيلىة
٢٤٦ فوز والعباس
٢٥٠ سلامة والناسك
٢٥٤ ذو الرمة
٢٥٩ المنخل اليشكرى



منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
الساحرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقة بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٩١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
مركز التحرير	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالنشبية	٠٣/ ٤٨٧٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مسكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أمبروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مسكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أمبروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١
النصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة النصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة - شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٤٩١٩٢	
الزقازيق	مكتبة النقره	ميدان النقره - بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عربى	ميدان أحمد عربى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

متطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحي- حي فيصل	٠٦٢/ ٣٩٧٢٩٦٦	
شبراخيت	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطي	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٣٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحي	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣٦	

